سير قوين بل
يروى ذكرياته

إدارة السودان في الحكم الثنائي

اعداد

بشير محمد سعيد

١٩٨٨

محتويات الكتاب

الموضـوع	الصفحة

الناشرون : دار جامعة الخرطوم للنشر

ص.ب : ٣٢١ الخرطوم (السودان)

الطبعة الأولى ١٩٨٨

دار جامعة الخرطوم للنشر

الطابعون : مطبعة جامعة الخرطوم

بســم الله الرحمن الرحـيم

مقــدمــة

نحن فى السودان ــ كغيرنا من أهل العالم الثالث ــ نحتاج أن نثرى تجاربنا من خبرات من سبقونا فى مضمار النهضة والحضارة والتقدم، وان نتعلم منهم مالانعلم. بل لعلنا بسبب ماخضعت له بلادنا من تسلط وطغيان ، ومشاكل واخطاء جسام، تولد عنها هذا التخلف الذى نعانى منه فى سائر أوجه الحياة ــ أشد حاجة من غيرنا لمثل هذه الخبرات. وتصبح هذه الحاجة منا أشد الحاحاً متى كان الخبراء قد مارسوا خبرتهم فى بلادنا نفسها ، لاسيما فى ميدان الحكم والإدارة .

وكان قد صدر فى لندن عام ١٩٨٣ عن شركة س . هرست للنشر ، كتاب قيم أسمه «ظلال على الرمال*» يحمل بين طياته ذكريات رجل عمل بين ظهرانينا وفى بلادنا سنين عديدة ، هو سير قوين بل الذى التحق عند تخرجه من جامعة أكسفورد ببريطانيا بخدمة السلك الإدارى فى السودان عام ١٩٣٠ فى سن الحادية والعشرين ، وظل يتقلب على مختلف المناصب فى هذا الحقل ، ويتنقل فى كثير من المناطق حتى أصبح فى نهاية المطاف ، قبل تقاعده فى عام ١٩٥٤ ، آخر وكيل بريطانى لوزارة الداخلية عند قيام الحكم الذاتى.

والكتاب يسرد ذكريات مؤلفه عن عمله فى كسلا ، والقضارف ، والبطانة والخرطوم ، وجبال النوبة ، والأبيض ، ومركز غرب كردفان ، ويسرد أيضاً ذكرياته فى بلاد أخرى غير السودان اتيح له أن يعمل فيها ، ويتحدث عن واجباته ومسئولياته ، وكيف كان يقبل عليها ويصرفها ، عن طوافه على سائر أنحاء المراكز التى عمل فيها ، سهولها وجبالها ، ووديانها وانهارها ، أحراشها وصحاريها ، عن المشاكل التى كانت تواجهها الإدارة فى عهده ، عن المنازعات القبلية التى كان يفضها ، عن المحاكم التى كان يرأسها ، والقضايا التى كان يفصل فيها ، عن المهرجانات

* SHADOWS ON THE SAND : THE MEMOIRS OF SIR GAWAIN BELL
PUBLISHERS, C. HURST & COMPANY, LONDON. 1983

القبلية والمعارض الاقليمية التى كان يقيمها ، عن الجهود التى كان يبذلها لدرء الأوبئة والأمراض وما إلى ذلك من الأنشطة . ويكشف أيضاً عن موقف البريطانيين الذين كانوا يعملون فى السودان من النزاع البريطانى المصرى حول بلادنا ، ومن مفاوضات الحكم الذاتى التى أسفرت فى فبراير ١٩٥٣ عن اتفاقية السودان ، وعن موقفهم من الطوائف الدينية وزعمائها ، وجنوب السودان ومستقبله ، والأحزاب السياسية والطبقة المستنيرة ، مما نختلف معه فيه أو نتفق .

واتيح لى فى عام ١٩٨٤ أن ألتقى بالمؤلف فى لندن . وكنت قد سعدت بالتعرف عليه من قبل فى السودان حين كان يعمل به . واقترحت عليه أن نشترى منه حقوق نشر الجزء الخاص بالسودان من كتابه لنشره بالعربية تعميماً لفائدته ، لاسيما بين الناشئة والشباب من الإداريين السودانيين . ورحب بالاقتراح . وذهبنا سوياً لمقابلة مدير الشركة الناشرة للكتاب . واتفقنا . ورأى سيرقوين بل أن يتبرع بحصته فيما كنا اتفقنا عليه ثمناً لحق النشر ، لبعض الأعمال الخيرية فى السودان ، وفعل ذلك مشكوراً .

واتصلت به فى العام الماضى أستأذنه فى أن نهدى الطبعة العربية من كتابه لروح خالد الذكر المغفور له السيد مكاوى سليمان أكرت ، شيخ الإداريين السودانيين والذى كان من قادة الرأى وكبار المثقفين والمفكرين فى بلادنا ، عرفانا بفضله وتخليداً لذكراه . وكانت استجابته كريمة وسريعة وايجابية .

وعهدت بترجمة الكتاب ترجمة أولية الى الاستاذ حسين بيومى من كبار المعلمين فى وزارة التربية والتعليم ، فأقبل عليه فى مستوى رفيع من الأداء . ثم اخضعته للمراجعة والتحرير ، فكان ثمرة ذلك الجهد منا هذا الكتاب الذى نضعه بين أيدى القراء اليوم . وقد تكرم السيد حسن زيادة من كبار الخريجين واصدقاء خالد الذكر السيد مكاوى سليمان أكرت بتقديم حقائق ومعلومات هامة عن حياة الفقيد ، كما تكرم السيد كرم الله العوض أحمد ، رئيس هيئة الخدمة المدنية السودانية ، وهو نفسه من كبار الإداريين ، فقدم لنا كلمة وفاء ننشرها فى صدر الكتاب .

وقبلت جامعة الخرطوم مشكورة أن تقوم بطبعه وإخراجه ونشره . ورأينا

أن نخصص ريعة لإقامة جائزة سنوية تحمل أسم فقيدنا العزيز، نقدمها لأحسن المتخرجين فى جامعة الخرطوم فى دراسة الإدارة، وأكثرهم تفوقاً، تقديراً لنبوغه، وتشجيعاً لغيره ليحذوا حذوه .

واخيراً فإنى اذ أتوجه بأسمى آيات الشكر لمؤلف الكتاب، سيرقوين بل، ولكل من أسهم فى إعداده وإخراجه وتقديمه ونشره وأرجو أن يجده القارىء ذا نفع له . والله أسأل أن يسكن فقيدنا العزيز فسيح جنانه مع الصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقاً .

يناير ١٩٨٨ **بشـــير محمد سعيد**

بســم الله الرحمن الرحــيم

كلمــة وفــاء

استعانت الإدارة التى قامت فى السودان بعد اتفاقية ١٨٩٩ بين الحكومة البريطانية والحكومة المصرية على تصريف أعمالها بالضباط البريطانيين والمصريين الذين شاركوا فى الفتح . وحرص اللورد كتشنر على ارساء دعائم الأمن والإدارة على أسس سليمة ، مستفيداً من أولئك الضباط الذين كانوا تحت أمرته ، كسردار للجيش المصرى وحاكم عام السودان . فقد تم تعيين كبار الضباط البريطانيين فى وظائف المديرين ، ومساعديهم ، ورؤساء المصالح ، كما تم تعيين الضباط المصريين فى وظائف المآمير ونواب المآمير .

بما إن تبعية الضباط العسكريين للجيش المصرى ، كانت تقتضى نقلهم ، من وقت لآخر ، إلى وحدات الخدمة العسكرية ، ونظراً لما يترتب على ذلك ، وينعكس على سير العمل والإدارة الرشيدة ، فقد رؤى أنه من الضرورى ، ضماناً لاستمرارية العمل بطريقة مرضية ، تعيين كادر إدارى من المدنيين ليحلوا محل العسكريين تدريجياً مع بعض الاستثناءات وفقاً لمقتضيات المصلحة العامة ، وظروف الأمن فى بعض مناطق السودان ، والتى حتمت استمرار بعض العسكريين خاصة فى الاقليم الجنوبي وغرب السودان . وقد قرر اللورد كرومر ، وكيل بريطانيا وقنصلها العام بمصر آنذاك ، أن يتم اختيار ذلك الكادر من خيرة خريجى الجامعات البريطانية العريقة (أكسفورد — كمبردج — كلية ترنتى — دبلن — ايرلندا) ، وان تراعى فى الاختيار الأسس المتبعة فى وزارة الخارجية البريطانية ، وفى مقدمتها اللياقة البدنية نسبة لظروف السودان المناخية ، وطبيعة العمل التى تتطلب السفر المتواصل بوسائل الترحيل البدائية (الدواب — الاقدام) لتصريف مهامهم ، وتأدية أعمالهم المتعلقة بحفظ الأمن والنظام ، وتطوير المناطق التى يعملون بها أجتماعياً واقتصادياً ، وتوفير الخدمات الضرورية للمواطنين ، وبعد مضى بعض الوقت أى فى عام ١٩٢٢ ، عدل أسم الخدمة من « الخدمة الإدارية » إلى « الخدمة السياسية » ليساير ظروف التطور التى أقتضت تقنين وتحديد مسئوليات الفئات المختلفة العاملة فى السودان ، وتخصصاتها المتباينة .

لم يكن للسودانيين موقع فى هذه الإدارة فى السنوات الأولى التى تلت الفتح، ولم يفسح لهم المجال للعمل بالإدارة إلا بعد نشوب الحرب العالمية الأولى حيث ألحق بعض الضباط العسكريين السودانيين للعمل كنواب مآمير، كما تم أختيار بعض المعلمين وغيرهم لهذه الوظائف تدريجيا، وارتفع عدد المآمير ونوابهم من سودانيين فى السنوات التالية، خاصة بعد مقتل السير لى ستاك حاكم عام السودان فى عام ١٩٢٤، وسحب الجيش المصرى، وانهاء خدمات المآمير المصريين، حيث خلت كثير من الوظائف الإدارية التى كان يشغلها المصريون.

إن أدخال نظام الإدارة الأهلية فى المناطق الريفية أقتضى الحد من التوسع فى التعينات فى الوظائف الإدارية، خاصة المـآمير ونواب المآمير، مما أستدعى وقف اى تعينات جديدة، واغلاق مدرسة نواب المآمير فى عام ١٩٢٦.

نصت اتفاقية ١٩٣٦ المبرمة بين الحكومتين البريطانية والمصرية بأن يكون الهدف الأساسى من إدارة السودان تحقيق رفاهية السودانيين، وان يراعى فى التعينات والترقيات للموظفين اعطاء الاسبقية الأولى للسودانيين الذين تتوفر فيهم المؤهلات المطلوبة وفى حالة تعذر وجود ذلك يتم التعيين بالاختيار من بين الأشخاص المؤهلين المناسبين من البريطانيين المصريين، وترتب على ذلك فتح باب المزيد من الفرص للسودانيين للترقى والتعيين فى الوظائف العليا المختلفة وعلى رأسها السلك السياسى. وأعيد فتح مدرسة الإدارة فى عام ١٩٣٦، وانتظم الاختيار لها سنويا فى دفع صغيرة زاد عددها تدريجياً من أربعة إلى مايقارب خمسة عشر أو عشرين. وكان يتم توزيع الخريجين مابين الإدارة والبوليس حسب متطلبات العمل. وتضاعف عددهم وتدرج بعضهم الى المناصب العليا ووصلوا الى وظائف مساعدى مفتشين، ومفتشين، ونواب مديرين قبل تطبيق السودنة وفقاً لاتفاقية الحكم الذاتى وتقرير المصير فى فبراير ١٩٥٣، مما مكن من تحقيق أهداف تلك الاتفاقية فى سهولة ويسر، إذ تولى أولئك الإداريون المناصب العليا التى كانت من قبل وقفاً عل البريطانيين، وادوا المهام الموكلة اليهم بكفاءة واقتدار، كانت موضع الاعجاب والتقدير، ..

إن البريطانيين والمصريين والسودانيين الذين اختيروا للعمل بالإدارة خلال تلك الفـترة أخضعوا جميعاً عنـد الاختيار للفحص الدقيق وفقـاً لنظريات القيادة

المعاصرة ورروعى فى ذلك أن تتوفر فيهم المؤهلات العلمية الرفيعة والذكاء ، وقوة الشخصية ، والصبر على تحمل المشاق ، والقدرة على التكيف الاجتماعى ، ومضاء العزيمة ، والثقة فى النفس ، والصفات القيادية ، والتفتح كطلاقة اللسان والحماس والود والمرح والابتكار والمرونة الفكرية والنشاط الرياضى ، مع توفر السمات الجسمانية واللياقة الصحية والمظهر العام .

فى عام ١٩٣٦ اعيد فتح مدرسة نواب المآمير التى سميت فيما بعد مدرسة الإدارة . واقبل مئات المتنافسين من موظفى المصالح والإدارات الحكومية الأخرى للتقدم بطاباتهم للالتحاق ، واخضعوا جميعاً للمعاينة الدقيقة بنفس تلك المقاييس والمعايير ، فكـــان مكاوى سليمان أكرت قائدهم ، إذ أختير فى الدفعة الأولى ضمن ستة للتدريب فى عام ١٩٣٦ وتخرجوا فى أوائل ١٩٣٧ .

بما ان السير قوين بل مؤلف كتاب« ظلال على الرمال » الذى يسرد فيه بعض تجاربه فى حقل الإدارة فى السودان قد تبرع مشكوراً بحقه فى نشر الكتاب باللغة العربية للأعمال الخيرية فى السودان ، ووافق على اقتراح السيد بشير محمد سعيد بأهداء الطبعة العربية لروح خالد الذكر المغفور له السيد مكاوى سليمان أكرت شيخ الإداريين السودانيين ، وان يخصص ريعه كجائزة سنوية بأسمه تقدم لاحسن الخريجين من جامعة الخرطوم فى الإدارة سنويا تقديراً لنبوغه وتحفيزاً لغيره ، أصبح من المناسب أن نعرف القارىء بالسيرة الذاتية للفقيد ، وانجازاته أبان فترة عمله فى الإدارة وفى غيرها . اذ أن عطاءه الثر أستمر طيلة حياته ، والى سويعات قبل وفاته فى ١٧ فبراير١٩٨٦ .

ولد طيب الذكر مكاوى سليمان أكرت عام ١٩٠٩ بمدينة أمدرمان (حى الركابية) من أب عمراني هو الأمير سليمان أكرت (أحد امراء المهدية) ووالدة ركابية هى السيدة فاطمة مصطفى ، وينحدر كلاهما من بيوت دين عريقة ومعروفة ، ولها مساجد وخلاو لتعليم القرآن الكريم فى الكثير من ارجاء البلاد ..

كان السيد مكاوى يتمتع بذكاء مفرط ، وذاكرة فوتغرافية وقادة ، وأتسم بأقباله وشغفه بالقراءة والكتابة مما جعله يحتل مرتبة الصدارة فى كل مراحل تعليمه ، وكان بأستمرار فى مقدمة أقرانه بمدرسة أمدرمان الوسطى التى دخلها عام ١٩٢٠

واتم دراسته بها فى نهاية عام ١٩٢٣ كما كان أول الطلبة الممتحنين من كل مدارس السودان لدخول كلية غردون التذكارية فى بداية ١٩٢٤ ..

أكمل مكاوى دراسته بكلية غردون التذكارية وتخرج منها فى أول يناير عام ١٩٢٨ ، وعين محاسباً بمصلحة المالية وألحق بقسم المراجعة ، وتم أختياره لمدرسة نواب المآمير (مدرسة الإدارة) فى عام ١٩٣٦ وكان أول الدفعة المتخرجة فى أوائل ١٩٣٧ والتى ضمت السادة :ـ

العوض حامد جبر الدار

خليفة محجوب

محمد صفوت

تقلد السيد مكاوى المناصب الادارية التالية :ـ

نائب مأمور بالأبيض من ١٩٣٧ الى ١٩٤٠

نائب مأموز بالكرمك من ١٩٤٠ الى ١٩٤٣

نائباً لسكرتير المجلس الاستشارى لشمال السودان

رقى لوظيفة مساعد مفتش فى عام ١٩٤٦

وأصبح أول ضابط سودانى لمجلس بلدى أمدرمان (١٩٤٦ ـ ١٩٤٨) .

وكيلا برلمانيا للمالية بالجمعية التشريعية عام ١٩٤٨

مساعد وكيل لحكومة السودان بالمملكة المتحدة من ١٩٥٢ الى ١٩٥٤ ..

أول مدير سودانى لمديرية كردفان ١٩٥٤ ـ ١٩٥٦

وكيلاً دائماً لوزارة الداخلية ١٩٥٦ ـ ١٩٥٨

محافظاً لمشروع الجزيرة ١٩٥٨ ـ ١٩٦٢

وقد شهدت تلك الفترة قيام امتداد المناقل الذى أوشك أن يضاعف مساحة الرقعة المزروعة بمشروع الجزيرة .

عند تقاعده بالمعاش عمل لمدة ثمانى سنوات كمدير ورئيس لمجلس إدارة شركات جلاتلى هانكى (سودان) وشركاه ، ثم عمل بلجنة أستئنافات العاملين فى عام ١٩٧٢ عضواً ثم رئيساً فى ١٩٧٧ حتى نوفمبر ١٩٨١ ثم عضواً بهيئة الخدمة

العامة ولجنة الاستئناف بعد تكوينها الجديد من يناير ١٩٨٢ ،وظل بها حتى وافته المنية فى ١٧ فبراير ١٩٨٦ ..

أما نشاطاته الاجتماعية والثقافية والرياضية فلا حدود لها وستظل دائماً مضرب المثل وقد شملت الآتى :—

كان رئيساً لفترة طويلة لمجلس أمناء معهد القرش الصناعى ، تمكن خلالها المجلس من توفير بعض الحلول لمشاكل الأطفال المحرومين الذين لم ينالوا حظاً من التعليم .

وكان عضواً بمجلس إدارة جامعة الخرطوم حتى عام ١٩٦٢ .

وعضواً بمجلس إدارة كل من البنك العالمى السودانى ، وشركة الصمغ العربي المحدودة ، وشركة الشاى المحدودة وغيرها ..

كان السيد مكاوى أحد الاعضاء المؤسسين لجمعية أبي روف للقراءة ، باكورة ورائدة النشاط الأدبي والثقافى ، وصاحبة فكرة مؤتمر الخريجين ويوم التعليم . ولمكاوى مكتبة غنية تعج بآلاف الكتب القيمة ؛ وتعتبر مورداً ثراً للباحثين والدارسين ..

مارس ضروب الرياضة المختلفة واجادها ، وكان من ابرز الطلبة العدائيين الذين تعاقبوا على كلية غردون ، وله باع طويل فى العاب التنس والبولو والاسكواتش والفروسية ، وكان أحد افراد الفريق القومى الذى مثل السودان فى هذه اللعبة فى مباريات دولية بالخارج ، كما كان رئيسا لاتحاد الفروسية فى عام ١٩٦٧ ..

ان السيد مكاوى سليمان أكرت كان دائماً يؤدى عمله ، سواء فى الإدارة أو فى أى من المواقع الأخرى التى عمل فيها ، بأمانة واخلاص وتجرد ونكران للذات ، ففى أثناء عمله كأول مدير سودانى لمديرية كردفان كان كثير الطواف على أقاليم المديرية ومراكزها ، متفقداً أحوال المواطنين ، وسير الاداء فى جميع المرافق ، كما كان همه الأول وهدفه تحقيق المصلحة العامة وخير المواطنين واسعادهم . وقد شعر المواطنون حينئذ بالفارق الكبير بينه وبين من سبقوه ، ووضع القدوة الحسنة للجميع ..

وهذا هو الأسلوب الذى سـار عليه فى جميع المواقع التى عمل بها . ويكفى دليلاً على هذا أنه فى لجنة الاستئنافات كان يعمل حتى قبل ساعات قليلة من وفاته، إذ حضر جلسة الاحد ١٦ فبراير ١٩٨٦ حتى الساعة الواحدة ظهراً وانتقل إلى جوار ربه فى فجر الاثنين ١٧ فبراير ١٩٨٦ .

لقـد أدى السيد مكاوى سليمات أكرت رسالته على الوجه الأكمل . وخلف ذكرى عطرة خالدة ، وذهب الى ربه راضياً مرضياً ..

ألا رحم الله مكاوى وأدخله فسيح جناته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ..

كرم الله العوض أحمد
رئيس هيئة الخدمة العامة
الخرطوم
٢٢ مارس ١٩٨٨م

الفصل الأول

التنظيم الإدارى فى السودان

كنت واحداً من سبعة شبان تم أختيارهم فى عام ١٩٣٠ للعمل فى السودان ، وأرسلوا إلى جامعة أكسفورد ليمضوا فيها فترة تدريبية قبل مغادرتهم لها فى سبتمبر من عام ١٩٣١ إلى لندن ، ومنها بالقطار إلى ميناء مارسيليا فى جنوب فرنسا ، حيث يبحرون إلى بورتسودان . كنا جميعاً فى مقتبل العمر وزهرة الشباب ، الثانية والعشرين . وكانت لحظة الوداع قاسية على نفسى وعلى والدى ، ولكنهما احتملاها فى ثبات وشجاعة . فى القطار التقينا بثلاثة من صغار الضباط كانوا فى طريقهم إلى الخرطوم للحاق بكتيبتهم بعد قضاء إجازتهم بين ذويهم فى بريطانيا . وكانوا مثلنا شباباً ، ولكنهم أكثر خبرة ومعرفة بالدنيا ، إذ عملوا قبل نقلهم إلى السودان فى الهند ، ونالوا بذلك شيئاً من الخبرة لم يتوفر لنا بعد .

وحملتنا الباخرة عبر البحر الأبيض المتوسط فى رحلة مريحة ممتعة إلى بور سعيد حيث ألقت مراسيها بضع ساعات تتزود خلالها بالوقود من الفحم الحجرى ، يحمله إليها رهط من العمال المصريين فى سلال على أكتافهم وهم يترنمون بأناشيد وتراتيل تزيل عن نفوسهم العناء والملل ، وتبعث فيها الحيوية والنشاط .

ونزلنا من السفينة إلى الشاطىء لنشترى قبعات تقينا من حرارة الشمس . وكان الأجانب من أمثالنا يحصلون عليها وعلى غيرها مما يريدون اغتناءه من محلات سايمون التجارية التى تقف تجاه أرصفة القنال كأنها ترمز لآخر مظهر من مظاهر الغرب فى مدخل الشرق وبوابته. فيها يحصل المسافرون على كل مايحتاجون اليه للعيش فى المناطق الحارة ، تقع عند المدخل الشمالى للقنال تجاه سيناء ، وتتألف من عدة طوابق وصالة لتناول الشاى . وكان يقف على مسيرة نصف ميل من ملتقى القنال بالبحر الأبيض المتوسط تمثال شامخ لفرديناند دى لسبس ، مصمم قنال السويس ومبدع فكرتها ، ولكنه قذفت به الجماهير الغاضبة إلى قاع البحر فى عام ١٩٥٦ عند وقوع العدوان الثلاثى على مصر ، أثر تأميم الرئيس جمال عبد الناصر لشركة القنال .

وكنت ترى أمام محلات سايمون على الطريق العام بعض العربات تجرها الخيول (الحناطير) وهى تتحين فرصتها لاقتناص الزبائن ممن يرغبون فى التجول فى القطاع الشعبى من مدينة بورسعيد ، سائقوها يلوحون بكرابيجهم فى الهواء ، ويرفعون أصواتهم بالنداء ، بينما تقف خيولهم بائسة مطأطأة الرؤوس . وكان يرتاد الشارع عدد غير قليل من السابلة من كل جنس ولون ، ويجلس فى المقاهى آخرون يحتسون الشاى أو يلعبون النرد . وكان السماسرة والصبية والشحاذون يتسكعون أمام أبواب الميناء يرقبهم شرطيان أو ثلاثة مسلحون بالهراوات . وكان هناك أيضا من سمحت لهم سلطات الميناء بالصعود إلى ظهر السفينة لعرض بضاعتهم وتحفهم المؤلفة من المصنوعات الجلدية والسلال على الركاب ، ولكنهم كانوا يعرضون أيضا — فى الخفاء — العقاقير المنشطة للجنس . وكان يطوف حول السفينة بعض الصبية ، يسبحون ويغطسون ويغوصون فى الماء كأنهم الحيتان ، بأمل أن يقذف الركاب ببعض النقود المعدنية مكافأة لهم .

ومضى يوم كامل على مغادرتنا لبورسعيد اخذت خلاله جبال سيناء تبتعد وتتوارى عن انظارنا . ودخلنا البحر الأحمر بهوائه الحار المشبع بالرطوبة ، ومناخه الخانق المقبض للنفس . وساءلت نفسى لماذا اخترت هذا الضرب من العمل ؟ ولماذا السودان بالذات ؟ وانا لست تواقاً لخدمة الامبراطورية البريطانية ورفعتها لتهون أمامى المخاطر والمغامرات . والامبراطورية نفسها لم تكن فى حاجة لخدمة منى إذ كانت راسخة كالطود . ولعل ميثاق عصبة الأمم بما كان يلقيه على كاهل العالم المتحضر من مسئولية تجاه الشعوب التى لم تنهض على أقدامها بعد ، للأخذ بأيديها فى مدراج التقدم ، كان من دوافع إقدامى على العمل فى السودان . ولعله من الأمانة أن أعترف فى هذا المقام بأن نهضة السودان الى كنت أفهمها وانشدها فى ذلك الوقت لم ترق إلى مستوى التقدم به إلى الاستقلال أو حتى الحكم الذاتى ، فما من أحد منا كان يتوقع للسودان أن ينال استقلاله قبل أن نبلغ سن التقاعد فى الخمسين من أعمارنا . ومع هذا فقد كنا بحكم العمل الذى أخترنا أن نقبل عليه من حفظ للأمن والنظام ، وتطوير للحكم المحلى ، وتشجيع وتوسيع للتعليم ، ودفع للاقتصاد وانعاش له ، وعشرات الانشطة المماثلة الأخرى ، كنا — دون أدراك منا — كمن

يحفر قبره بيده ، ويقوض الوضع الذى كان جزءاً لايتجزء منه ، كلما أشتد إقبالنا على تصريف مسئوليتنا ، وتجويدنا لعملنا ، ونشرنا لأسباب الوعى بين الناس، اشتدت رغبتهم فى الخلاص منا ، وحرصهم على أن يكونوا سادة الأمر فى بلادهم . وتلك سنة الحياة .

شعب أصيل مقدام

كنا نعلم حق العلم أن عملنا فى السودان ليس سبيلا للثراء ، ولم نكن نطمع فى تقدير من أحد، ولا فى مكافأة أو وسام أو اعتراف. . . الطقس كان جحيماً شديد الخطر على حياة الإنسان . ومع هـذا كله أخترنا فى حرية واردة أن نعمل فى السودان لأن من سبقونا للعمل فيه حدثونا عن سماحة شعبه ، وأصالته ، وشجاعته . وكرمه ، وما يمتاز به من صفات نبيلة . وقد صدق عندنا هذا كله ، فكانت حياتنا بين السودانيين زاخرة بالنقاء ، حافلة بالمغامرة . هذا كان مبعث الرضا عندنا ونحن نبحر جنوباً نحو بورتسودان . وكان مما زاد من سرورنا شعورنا بالانتماء إلى فئة من العاملين تميزت بمستواها الرفيع فى الأداء ، وسمو خلقها ، وما يربط بين أفرادها من أواصر الاحترام والزمالة والاخاء . هذا كان كافياً لاقناعى بسلامة أختيارى لما كنت مقبلاً عليه ، فهانت أمامى قسوة الطقس فى البحر الأحمر ، وشدة رطوبته.

وفى فجر اليوم الرابع وصلنا الى بورتسودان ، فألفينا الميناء تتكون من عدد قليل من الأرصفة والمخازن والقوارب ، يقف بالقرب منها قطار طويل ذو عربات بيضاء ذات نوافذ خشبية مغلقة . وقد تجمهر على الرصيف بعض العمال ذوو الشعر الكث الطويل يرمقون السفينة فى أزدراء . وعلى الجانب الآخر من الرصيف تقف مجموعة من الموظفين السودانين العاملين فى الميناء أو الجمارك فى زيهم الرسمى، بجانبهم أربعة من رجال الشرطة ذوو الأردية البيضاء ، والعمامات الانيقة تغطى رؤوسهم ،وفى وسط الميناء ميدان يحيط به عدد من المبانى البيضاء ، يرفرف فى قمة أعلاها العلمان الانجليزى والمصرى . وبدا لنا على البعد عدد من المنازل الطينية ذات الأسقف المنخفضة تطل من ورائها سلسلة من الجبال . وكان كل شىء يبدو هادئاً وساكناً على نقيض ما رأينا فى بورسعيد ، ففى هذه الميناء لاترى محلات تجارية ، ولاعربات تجرها الخيول ، ولاسماسرة ولامتشردين .

وقبل ان نغادر السفينة الى البر لبسنا لأول مرة البدل البيضاء : زينا فى المناطق الحارة . وكانت الساعة حنئيذ تشير إلى التاسعة صباحاً ، والحرارة على أشدها ، والرطوبة تحبس الأنفاس وتخنقها . وقامت سلطات الجمارك بتفتيش حقائبنا . وكان لنا بسبب حداثة عهدنا بالاستخدام فى حكومة السودان حق الاعفاء من الرسوم الجمركية عـــلى بعض المعدات الهـــامة ، ولكنى مع هذا لم أنج من دفع رسوم على الفونوغراف والبندقية اللتين كنت أحملهما ، غير أنى استطعت أن أحصل فى الميناء على ترخيص للبندقية . وكان قد مضى علينا فى صالة الجمارك ساعتان أخذ فيهما الاعياء منا كل مأخـــذ بسبب حرارة الطقس . ثم تقـــدم نحونـا مساعد معتمد بورتسودان ، مستر كلارك ، يرحب بنا بأسم رئيسه ميجر دوقلاس ستوكر براونلى تومسون ، ويوجه لنا الدعوة ، نيابة عنه ، لتناول الغداء معه ، ويفيدنا أيضا أنه قد حجزت لنا أماكن فى القطار الذى كان مقرراً أن يغادر بورتسودان عصر ذلك اليوم إلى الخرطوم . وقام بتسليمنا تذاكر السفر ووعدنا أن يشرف بنفسه على شـــحن أمتعتنا . حقاً لقد أثار ذلك الفتى إعجابي بكفاءته وحسن استقباله وتصرفه وهدوئه .

وقبيل الساعة الواحدة اصطحبنا مستر كلارك إلى منزل المعتمد . وهناك ألفينا حديقة تزخر بأشجار الزونيا والورود دلفنا منها إلى صالة تزينها عقودات جميلة . وكان بلاط الصالة والحجرات لامعاً ، والجدران بيضاء تزينها بعض التحف كالحراب وغيرها . واستقبلنا اثنان من الخدم كل منهما يلبس جلبابا أبيض ، ويتمنطق بحزام أحمر ، وقادانا إلى غرفة الجلوس . وكان مضيفنا ميجر تومسون قد درس الطب فى كلية دبلن ، وانتدب للعمل السياسى فى السودان ، فأمضى سنواته الخمس الأولى فى محاربة تجارة الرقيق . وكان قد بلغ الخمسين من عمره عند لقائنا به وأخذ يتأهب للتقاعد فى نهاية ذلك العام . واستقبلنا سيادته بحفاوة وترحيب واكرام . وكان يرتدى حلة بيضاء ، ويحلى صدره بألاشرطة والنياشين التى استطعت أن أميز منها نوط النيل ونجمة أثيوبيا . وكان الغداء يتكون من اللحم البارد وسلطة الخضار الطازج والحلوى . وانتقلنا بعد الغداء من حجرة المائدة إلى حجرة الجلوس حيث احتسينا القهوة التركية ، ودخنا السجاير المصرية ثم أنصرفنا الى محطة القطار يصطحبنا

مستر كلارك . وسار بنا القطار بطيئا ، ولكن ماهو الا وقت قصير حتى تسلقنا تلال البحر الأحمر وتركنا بورتسودان وقسوة طقسها وراءنا .

وكان يحكم السودان منذ اعادة فتحه بعد معركة كررى فى عام ١٨٩٨ حاكم بريطانى هو فى نفس الوقت القائد العام للجيش المصرى (السردار) . وكان يتمتع بسلطات عسكرية ومدنية واسعة . وقد تبوأ هذا المنصب فى العام الأول عقب إعادة الفتح لورد كتشنر ، وفى ديسمبر من عام ١٨٩٩ خلفه جنرال سير ريقنالد ونقت الذى بقى فيه ستة عشر عاماً . وفى ١٩٢٤ حين عين للسودان حاكم عام مدنى وألغى منصب السردار .

التنظيم الإدارى

وضع لورد كتشنر التنظيم الإدارى للسودان بتقسيمه الى أربع عشرة مديرية عين لكل منها مديراً اختاره من بين البريطانيين العسكريين العاملين فى الجيش المصرى ، وقسم المديريات إلى مراكز يقوم بادارة كل منها مأمور يتم أختياره من بين الضباط المصريين ، ثم تأتى طبقة المفتشين وسطا بين مدير المديرية والمآمير . وكان لكل مديرية مفتش أو مفتشان مسئولان عن الاشراف على عمل المآمير ، وعن كتابة التقارير للمديرين عن الأوضاع التى يشاهدونها . وكانت كثرة التنقلات بين الضباط الانجليز لاتساعد على استقرار الادارة وثباتها مما اقتضت معالجته تأسيس نواة للخدمة المدنية . أختير لها فى عام ١٩٠١ ستة شبان من خريجى جامعة أكسفورد وكمبردج ، تبعهم بعد اربع سنوات دفعة أخرى مؤلفة من ستة وعشرين . وتم فى نفس الوقت استيعاب بعض الضباط العسكريين فى سلك الخدمة الادارية المستديمة . وعلى الرغم من وقف استخدام الضباط فى وقت لاحق فقد أمتدت خدمة بعضهم إلى الثلاثينات والاربعينيات ، لاسيما فى المديريات الجنوبية — وكان المرتب الابتدائى للشبان المدنيين الذين اختيروا نواة للخدمة المدنية يبلغ أربعمائة وعشرين جنيهاً مصرياً فى العام ، ولكنه بعد ثلاثين عاماً ارتفع الى أربعمائة وثمانين ، وكان من حق كل منهم أن ينال إجازة سنوية يمضيها فى أوربا بعد اجتيازه فترة التجربة الأولى وتثبيته فى الخدمة .

ولابد لنا أن نقرر أن الخدمة الادارية فى السودان كانت فى واقع الأمر

أشبه بفرع الشؤون المدنية للجيش المصرى . ثم طرأ عليها تغيير إدارى فى عام ١٩٢٢ بادخال ضوابط إدارية جديدة أصبح بموجبها مفتش المركز مسئولاً عن مركزه ، وادخل فى نفس الوقت أصطلاح جديد أدى إلى تغيير اسم الخدمة الإدارية الى « الخدمة السياسية » غير ان هذا التغيير فى التسمية لم يغير من طبيعة العمل . وقد تأسست الخدمة الإدارية فى السودان من خليط من الحكم العسكرى المصرى ولهذا كانت سمته خليطا من هذين النظامين . وكان عدد العاملين فى الخدمة الإدارية يتزايد بمعدل ستة موظفين فى كل عام . وبلغ عدد العاملين فى هذه الخدمة منذ عام الى ١٩٠١ عام ١٩٥٢ حين توقف التعيين مائة واثنين وثمانين من خريجى جامعة أكسفورد ومائة وثلاثة من خريجى جامعة كمبردج ، ومائة وثمانية من جامعات بريطانية أخرى ، ومن الجيش البريطانى ، ومن مصادر أخرى . وفى خلال الأعوام البالغة خمسة وخمسين التى حكم فيها البريطانيون السودان كان مجموع أعضاء الخدمة الإدارية أربعمائة ، مات أو قتل منهم واحد وثلاثون أثناء تأدية واجباتهم . ومما يجدر ذكره أنه لم يتخط عدد عدد البريطانيين العاملين فى حقل الإدارة فى أى وقت مائة وخمسين رجلا . ولكن هذا الرقم ارتفع إلى مائتين خلال الحرب العالمية الثانية بسبب ترقية السودانيين الى درجات عليا . وعند استقلال السودان فى يناير ١٩٥٦ ارتفع عدد سكانه من مليونى شخص الى ثمانية ملايين مما يعكس درجة رفيعة من استتباب الامن والرخاء فى ربوعه .

لقد رأيت ان أورد هذه الأرقام لادلل بها على حسن مقصد إدارة السودان وحرصها على أداء واجبها على خير وجه . والاخذ بأيدى الأهلين فى مدارج التقدم رغم الظروف القاسية القاهرة التى كانت تقعد بها ، والتى يمكن أن نذكر منها على سبيل المثال : اتساع القطر وضخامة مساحته البالغة مليوناً من الاميال المربعة . وهو مايساوى عشرة أضعاف مساحة بريطانيا ، وثلاثة أضعاف مساحة مصر . وتسع مساحة العالم بأسره . وكانت هناك أيضا الصحارى الممتدة فى شمال البلاد . والسافنا فى وسطها والغابات والسدود فى جنوبها . هذه وغيرها كانت عوائق تجعل المواصلات أمراً شاقا وبطيئاً ، فليذكر الشباب السودانى هذه الحقائق قبل ان يمضى فى اصدار الاتهامات أو ينساق فى فورة الحماسة مع عواطفه .

في عام ١٩٣١ قامت إدارة السودان على اثنتى عشرة مديرية ، المديريات الشمالية الثلاث منها أمتدت على طول النيل إلى وادى حلفا على تخوم مصر . وكانت مصادر ثروتها محدودة وعدد سكانها ثلاثة أرباع مليون نسمة ، هم أساساً من الرحل والمزارعين الذين يعتمدون فى زراعتهم على السهل الضيق المحاذى للنيل . وينتجون قليلا من التمر والموالح والخضروات . وكانوا أيضا يعتمدون على تربية الضأن والماعز التى تعيش على بقايا القمح ، أو على النباتات البرية فى ضفاف النيل . وكانت هذه المديريات الشمالية غير هذا صحراء جرداء . وعلى الرغم من ان مساحتها تبلغ مائتى ألف ميل مربع فان مايهطل فيها من أمطار خلال العام لايتعدى بوصتين .وكان كثير من شباب هذا المنطقة يضيق ذرعاً بهذا الشظف فينزح منها طالباً للرزق فى الشرق الاوسط : خدماً فى المنازل مع كبار العلائلات . وهـؤلاء خليط من النوبيين والعرب ، يتحدثون اللغة العربية ويحافظون على لهجتهم النوبية المحلية .

المديريات الجنوبيـة

أما المديريات الجنوبية فقد كانت مساحتها تساوى مساحة الشمالية على وجه التقريب ولكنها ـ على النقيض منها ـ تغطى أرضها الأعشاب والغابات وتتخللها مئات الخيران الدافقة بالماء ستة أشهر من كل عام . وكانت هذه المياه الغزيرة تغرق السهول من حولها . وسكان هذه المنطقة هم القبائل النيلية . الدينكا والشلك والنوير . وهم أيضا قبائل البانتو، ويبلغ عددهم مليونان ونصف المليون من البشر ، يتكلمون لهجات مختلفة هى اللهجات القبلية الزنجية .

ويفصل الشمال عن الجنوب حزام من السافنا يتحول أولاً الى شبه صحراء ثم إلى صحراء جرداء كلما أمعنا فى السير شمالاً ، وإلى غابات كلما اتجهنا جنوبا . ويعيش معظم أهل السودان ، أربعة أو خمسة ملايين منهم . حياة الرعاة والمزارعين بعضهم يتنقلون شمالاً وجنوباً سعيا وراء المرعى لماشيتهم . واغلب هؤلاء ينحد من دم عربي امتزج بالدم الزنجى . ولكنهم جميعاً يعتنقون الإسلام ديناً باستثناء سكان جبال النوبة فى كردفان . ويمكن القول فى اجمال بأن الثقافة الغالبة فى هذه البلاد هى الثقافة العربية الإسلامية . كما يمكن القول بأن أهل السودان جميعاً يتحدثون اللغة العربيـــة .

كانت القاعدة المتبعة فى حكومة السودان بالنسبة للاداريين الجدد أن يبقوا فى العاصمة عشرة أيام أو اسبوعين قبل ذهابهم الى مراكزهم فى الأقاليم،ليتعرفوا على التنظيم الإدارى للحكومة ، ويقابلوا رؤساء المصالح، لاسيما السكرتير الإدارى وهو الرجل المسئول عن إدارة المديريات،ويزوروا أماكن مختلفة منها السجن العمومى ومصحة الأمراض العقلية والمستشفيات، ويلموا ببعض العادات الاجتماعية، ويزوروا كبار الموظفين فى منازلهم . وكانت هذه الزيارات ثقيلة على نفوسنا ، يسعدنا عند قيامنا بها ألا نجد أحداً فنترك بطاقتنا فى صندوق أعد لذلك . وكنا نرتدى الملابس القصيرة نهاراً والبدل ليلا .

وكانت السنوات ١٩٣١ ــ ١٩٣٤ قد شهدت الأزمة الإقتصادية الطاحنة التى تأثر بها السودان كغيرة من الأقطار ذات الاعتماد فى مواردها على تصدير المواد الخام . واقتضت تلك الأزمة أن تلجأ الحكومة لاتخاذ اجراءات اقتصادية صارمة تخفض بها من مصروفاتها تخطياً للكارثة المالية . واستعانت حكومة السودان فى هذا الصدد ببريطانيا التى أمدتها بخبير فى الشؤون المالية هو المستر فاس الذى عين سكرتيراً مالياً . وقد طابق اسمه المهمة التى عهد له بها . وكان مما فعله أن خفض عدد الموظفين بتوفير كثير منهم رغم كبر حجم الخدمات وقلة الموظفين . وكان ذلك منه خلال سنوات الأزمة الثلاث عملا عنيفاً ، اذ تم خلال عام ١٩٣٢ تخفيض الخدمة المدنية بألف موظف بينهم من السودانيين تسعة وستون . وكانت القوة العاملة فى السودان عام ١٩٣٠ تبلغ نحواً من ستة آلاف. وكنا نحن دفعة ١٩٣٠،التى تم تدريبها فى عام ١٩٣١ ، من المحظوظين إذ التحقنا بعملنا قبل وقت قصير من قفل باب التعيين وحسبنا أن نقرر فى هذا الصدد أنه خلال الاعوام ٣١ ــ ١٩٣٥ لم يعين فى الخدمة الإدارية ، أو ما كان يسمى بالخدمة السياسية ، غير ستة موظفين فقط. وكانت الأزمة الإقتصادية قد تفاقمت فى عام ١٩٣٤ .

السكرتير الإدارى

كان حاكم السودان العام عند التحاقى بالخدمة الإدارية سيرجون مفى ، وهو رجل عملاق،طوله ستة أقدام وأربع بوصات، يتمتع بجسم رياضى قوى. وكانت تطلعاته تفوق خيالنا ، وكان ساعده الايمن فى إدارة البلاد السكرتير الإدارى، سير

هارولد ماكمايكل ، الذى أشتهر بالذكاء وسعة الاطلاع ، وكان موضع الاعجاب والتقدير بسبب عمق ثقافته ، والاحترام من السودانيين المستنيرين . كان سكرتيراً ادارياً فذاً يتمتع بتقدير الناس على اختلاف أجناسهم ومآربهم ، وجدت فيه خلال عملى معه فى السودان أولا ، وفى فلسطين فيما بعد ، رجلاً رقيقاً مرحاً مرهف الحس دائم الحرص على مظهره . صارماً فى مطالبة الآخرين بالاهتمام بمظهرهم أيضا ، لايقبل أن يدخل عليه أحد من مرءوسيه الا فى ملابسه كاملة . وكان رغم حرارة الطقس فى الخرطوم ، يحرص على حلته فيتدثر بها ، ويلبس فوق القميص صديرية تحليها سلسلة ساعته ، غير أن غيلونه القصير لم يكن متسقاً مع مظهره الأنيق . وكان من عادته أن يغتنى فى لندن كل عام دستة أوأكثر من هذه الغلايين ، يستهلك واحداً منها كل شهر . تخرج من جامعة كمبردج ونال فيها المرتبة الأولى فى الآداب الكلاسيكية ، والتحق بخدمة حكومة السودان فى عام ١٩٠٥ .

وكان الاعتقاد السائد فى السودان عند التحاقنا بخدمته أن أشعة الشمس فى تلك المناطق قد تسبب الموت ، لهذا كنا نلبس القبعات طوال النهار ، لانخلعها الا فى المساء . وكان هناك نوعان من القبعات . النوع الأول منها يصنع فى الهند من ورق الجرائد القديمة بعد ضغطه وكسائه بالقماش البنى اللون (الكاكى) ، وهو خفيف الوزن ولكنه لايصمد أمام الأمطار طويلا . أما النوع الثانى فقد كان أكثر متانة ، يصنع من الفلين المقوى ولكنه كان ثقيلا ، نلتزم دائماً بلبسه مع الزى الرسمى عندما نقوم برحلات عمل خارج الخرطوم . وكان نادى السودان (سودان كلوب) مقرنا الذى نسكن فيه خلال الاسبوعين الأولين عند وصولنا للخرطوم .

وكان من أول ما اشتريته من مرتبى حصان وبندقية صيد خفيفة . واستأجرت طباخاً وخادماً ، مرتب كل منهما ثلاثة جنيهات مصرية فى الشهر . وانكببت على اللغة العربية الدارجة أدرسها . وكنت تواقاً لمغادرة الخرطوم الى مقر عملى فى الأقاليم أمنى النفس أن يكون مكانا يتكلم أهله العربية ، وأجد فيه من يزاملنى فى لعب البولو . ولم يخب رجائى ، اذ أخطرت بعد ثلاثة اسابيع من وصولى الى الخرطوم بنبأ نقلى إلى مديرية كسلا فى شرق السودان ، وهى مديرية مترامية الارجاء ، تحدها مصر من الجهة الشرقية ، والبحر الأحمر من الشرق ، وأثيوبيا ومستعمرة أريتريا الايطالية من الجنوب . وكان قد تم اختيارى مساعداً أضافياً لمفتش مركز القضارف .

الفصل الثانى
شرق السودان : ١٩٣١ - ١٩٣٣

مديرية كسلا التى تبلغ مساحتها مائة وثلاثين ألف ميل تتألف من صحراء وجبال وسهول ، وكان عدد سكانها عند التحاقى بخدمتها ثلاثة ملايين شخص من أجناس مختلفة متباينة ، يسكن فى شمالها البجة من قبائل الهدونة ذوى الشعر الكث الطويل ، وبنى عامر والامرأر والبشارين ، وهم ينحدرون من أصل حامى ، يرعون الابل ويرتحلون معها ، وكثيراً ما كانوا يتوغلون فى الأراضى المصرية . والبجة هؤلاء قوم رومانسيون لهم جاذبية خاصة تحببهم الى النفوس .

وكان يسكن حول مدينتى كسلا والقضارف قبائل مختلفة الأصول بعضها نزح من غرب أفريقيا ، أو تخلف فى هذه البقاع عند عودته من الحج فى مكة المكرمة . وفى جوف مديرية كسلا يمتد سهل البطانة ، من نهر عطبرة الى ضفاف النيل الأزرق يعيش فيه الشكرية ، وهم من القبائل السودانية ذات الأصول العربية ، يترحلون مع أبلهم سعياً وراء المرعى . وتختلف المناظر الطبيعية فى هذه المديرية وتتفاوت ، فيها جبال البحر الأحمر بقممها الشاحبة ، والسهول الرملية تزينها أشجار النخيل حول مدينة كسلا ، والسهول الممتدة حول القضارف ، والاحراش الكثيفة فى تخوم أثيوبيا .

وصلت إلى كسلا ذات ليلة فى الأسبوع الأول من أكتوبر ، فتذوقت مشاق السفر فى السودان ، وتعرفت على الوسائل التى انتهجتها الحكومة للتغلب على صعوبة المواصلات . وكان نهر القاش يفصل مدينة كسلا عن محطة القطار . وهو يفيض فى الأشهر الأولى من يوليو كل عام ، ويستمر فيضانه حتى أكتوبر فيعزل المدينة عن المحطة . ولما كانت كسلا تفتقر الى قنطرة تربطها بالمحطة عند فيضان القاش ، ابتدع المواطنون وسيلة سهلة لعبور النهر ، وذلك بحمل القادمين على أسرة (عناقريب) يحملها أربعة رجال أشداء ، يعبرون بها النهر الذى يبلغ عمقه ستة أقدام ، ويستعصى بسبب تياره الجارف على القوارب . وكان ينحدر من هضبة أثيوبيا عند هطول الامطار محملاً بالطمى الخصب يصبه فى نهاية المطاف فى دلتا القاش ، على بعد مائة

ميل للشمال من كسلا . أما عند انحسار مائة فانه لايعدو أن يكون خوراً رمليا ترعى فيه إبل البجة الذين يحفرون فى قاعه عدداً من الآبار السطحية لسقى حيواناتهم .

وصلت إلى كسلا بعد رحلة شاقة دامت ثلاثة أيام بسبب انقطاع الخط الحديدى نتيجة للسيول والأمطار الغزيرة . وكان وصولى ليلاً ، ولم يكن لى بد من ركوب الصعب مرة أخرى ، وذلك بعبور القاش محمولاً على أكتاف أربعة من الحمالين الأشداء . كنت ارتدى ملابس بيضاء ناصعة ، وأغطى رأسى بقبعة . ولما كنت الأوربي الوحيد فى القطار فقد تطوع ناظر المحطة بمساعدتى ، وحدثنى عن طريقة عبور النهر ، ثم حمل فانوساً وقادنى الى ضفة القاش حيث وجدت مجموعة من الشبان فى انتظارى ، بجانبهم العنقريب الذى يحملونى عليه . وجلست فوقه كما أشاروا على . وحملوه على اكتافهم ، وساروا ببطء وحذر شديدين داخل الماء . وكنت أرى على البعد أضواء تتحرك فى الضفة الأخرى . وكنا كلما توغلنا فى النهر ازداد ارتفاع الماء ، أول الأمر إلى ركب الحاملين ، ثم إلى نحورهم ثم إلى صدورهم فأكتافهم . وكان تقدمنا فى الماء بطيئا نحو الضفة الأخرى خشية السقوط فى الحفر . ورغم هذا البطء ظللنا نسير إلى الأمام ، بعيداً عن نقطة بدايتنا حيث توارى ضوء الفانوس الذى كان يحمله ناظر المحطة . وكان الظلام دامساً تصعب معه الرؤية إلا لمسافة قصيرة ، والماء دافىء الملمس . وكانت أشجار النخيل فى الضفة الأخرى تبدو لى كالاشباح . ولما بلغنا منتصف النهر ازداد الماء عمقاً ، وبلغ رؤوس الرجال الأربعة . وامتدت سواعدهم القوية ترفعنى نصف قدم فوق سطح الماء مما أثار اعجابي بهم ، وبقوتهم وجلدهم والمامهم الوثيق بمواطىء أقدامهم فى ذلك النهر الهادر . ولم نكن وحدنا فى تلك الرحلة بل كانت هناك مجموعات أخرى تعبر النهر كما نعبره :

وبعد خمس عشرة دقيقة من بداية رحلتنا ، وعند اقترابنا من الضفة الأخرى أخذ الماء ينحسر رويداً رويداً نحو صدور الرجال الأربعة ، فخصورهم ، فسيقانهم وكانت قمصانهم البيضاء الطويلة تقطر ماء غزيراً . واخيراً وصلنا إلى الضفة الأخرى فأنزلنى الحمالون إلى الأرض فى رفق . وهناك وجدت المستر آرثر هانكن ، أحد الإداريين البريطانيين فى انتظارى ومعه سيارة المركز ، يرتدى بدلة عشاء بيضاء

وربطة عنق سوداء . ورحب بي . وانطلقت بنا السيارة بعد ان دفعنا للحمالين أجرهم . وفى سطح منزله أعد لى سريراً لأنام عليه ، ولم يوقظنى من نومى ذاك شيء غير أصوات الذئاب وهى تعبث بالرمال فى الطرقات .

كان مدير المديرية المسئول عن الأمن والتنمية فيها يدعى مستر روبرت بيلى أو روبن ، فيما كان يناديه أصدقاؤه ، له نائب وأربعة مفتشين، وخمسة من نواب المفتشين . كلهم من البريطانيين . وكان من العاملين فى حقل الإدارة أيضاً عدد من المآمير فى رتب ودرجات تقل عن درجات المفتشين . وكان المآمير أول الأمر من الضباط المصريين . أما الآن فهم جميعاً من السودانيين . وكان فى مديرية كسلا ستة منهم ، وفيها أيضا بعض الا طباء والبياطرة وغيرهم من المهنيين . وكان المستر بيلى رجلا متسامحاً عطوفاً طويل القامة نحيفاً ، أنيق المظهر ، لـه سحر وجاذبية .

الرقة سر النجاح

وفى اليوم التالى لوصولى إلى كسلا استدعانى إلى مكتبه ، وحدثنى عن أعمال الاداريين وعما هو متوقع منهم . وقال إنه عند مجيئه للسودان أول مرة أوصاه الحاكم العام حينذاك ، سير رقلند ونقت ، بضرورة التحلى بالرقة والكياسة تحت كل الظروف، لاسيما عند التعامل مع السودانيين . واوصانى بدوره أن أذكر هذه النصيحة دائماً . وكان المستر بيلى يتمتع بقدر وافر من الطاقة والحماسة حتّى قال الهدندوة عنه إنه يجرىء حين يمشى الآخرون ، ويطير حين يجرون . كان رياضياً ذا روح عالية ، يرسل لنا كل يوم كراسة نسجل فيها أسماءنا ، ونختار الالعاب التى نود الاشتراك فيها عند أوقات الفراغ . وكان أمامنا واحد من ثلاثة خيارات، لعبة التنس أو الاسكواش أو البولو . وكان المتقاعسون عن الرياضة يلاقون منه سخرية وتوبيخاً . وكنا جميعاً بسبب هذا النشاط الرياضى نتمتع بلياقة بدنية عالية .

وكان المستر بيلى يبدو غريب الاطوار فى بعض الأحيان ، يطلب مثلاً من ضيوفه بعد العشاء أن ينشدوا بعض الأغانى الشعبية . وكان يحتفظ بكتيبات تحتوى على مثل هذه الأغانى ، خادمه يوزعها على الضيوف، وهو يختار الأغنية بنفسه ويقود الايقاع حقاً لقد كان شخصاً طيب القلب ، وكان من حسن حظى أن أعمل معه فى السنة الأولى لالتحاقى بالخدمة السياسية فى السودان .

أرسلنى المستر بيلى فى رحلتين على ظهور الجمال دامت كل منهما أكثر من شهر، ليوفر لى أسباب الدربة والخبرة العملية . وقد ساعدتنى هذه المأموريات على تحسين لغتى العربية، بالإضافة إلى فوائد أخرى كثيرة أكتسبتها منها . وكان بوصفه أكبر الإداريين فى المديرية، مسئولا عن تدريبى، ولكن المسئولية المباشرة عن ذلك كانت تقع على عاتق ميجر ايفانز مفتش مركز القضارف، وهو من ضباط الجيش المصرى الذين تم تحويلهم للعمل فى مجال الادارة بالسودان، وكان عظيم الشبه ببيلى، يتمتع مثله بطاقة فائقة، يعاملنى برفق رغم أننى لم أكن عسكرياً مثله . وتعلمت على يديه الكثير، مما افادنى فى مقبل أيامى.

مركز القضارف

كانت مدينة القضارف، مقر رئاسة المركز، ذات مظهر أشبه بأفريقيا منه بالبلدان العربية، تكثر فيها القطاطى المصنوعة من الأخشاب والقصب والأعشاب. ولم يكن عدد سكانها حينذاك يتجاوز خمسة عشر ألفاً . وهم خليط من القبائل العربية والنيجيرية والارترية والحبشية . أما المنطقة التى يغطيها المركز كله فقد كان يسكنها نحو من ثلثمائة ألف نسمة، وكانت مساحتها تبلغ ثلاثين ألف ميل مربع. أو مايقرب من مساحة اسكتلندة . وكان يعمل مع الميجر ايفانز مساعد مفتش بريطانى الجنسية ومأمور سودانى وضابط للشرطة . وكانت قوة الشرطة تتألف من مائة رجل بينهم المشاة والهجانة والسوارى . وفى المناطق الريفية خارج المدينة. حيث تسكن القبائل، عهد بتصريف العدالة وحفظ النظام الى شيوخ القبائل وفق القوانين والتقاليد القبلية . وكانت القضارف فوق هذا رئاسة لحامية شرق السودان . وهى إحدى خمس كتائب تشكل قوة دفاع السودان التى كانت مسئولة عن الأمن والنظام الداخلى، بالإضافة الى كتيبتين بريطانيتين مسئولتين عن الدفاع ضد أى عدوان خارجى وكانت حامية شرق السودان تتألف من كتيبة من الهجانة راكبى الجمال: يتسلحون بالبنادق وبقليل من المدافع سريعة الطلقات . ولم تكن تملك فى عام ١٩٣١ أى نوع من وسائل النقل المكنيكى. وكان يشرف على الكتيبة عدد من الضباط البريطانيين الكبار هم منتدبون لها من الجيش البريطانى، يعمل معهم وتحت قيادتهم عدد من السودانيين . وكان الجنود يجندون من بين ابناء القبائل التى تعيش فى منطقة كسلا.

أما مستوى الحامية فقد كان رفيع الكفاءة ، يسودها نظام صارم ، ويتمتع أفرادها بروح انضباطية عالية ، رئاستها تقع على قمة جبل حصين فى طرف مدينة القضارف ، وتشرف على مطار المدينة الذى كان يستخدم ميدانا للتدريب وملعباً للبولو .

وكان بين الضباط البريطانيين الاربعة أو الخمسة واحد يختلف عنهم اختلافاً بيناً . وقد تعرفت عليه ، وكنا نلتقى كثيراً ، نتناول طعام العشاء معاً ، ونجلس ونتحدث وقتاً طويلا تحت نجوم السماء . كان ضخم البنيان قصيراً ، له رأس كبير تنوء بحمله كتفاه ، وعينان نافذتان ، واخلاق رفيعة ، وكان فى مظهره أقرب إلى الاكاديميين منه الى العسكريين . وكان يبتعد عن زملائه الضباط ، يفضل أن يبقى معظم وقته مع جنوده ، يطوف معهم الحدود الأثيوبية ، ويفترش مثلهم الأرض ويتغذى بالتمر وغيره من الأطعمة الشعبية كما يفعلون ، ويطارد معهم عصابات الشفتة والمهربين . وكان يتمتع باحترام زملائه الضباط رغم ابتعاده عنهم ، ويجيد لعب البولو ، ويتحدث اللغة العربية بطلاقة ، شديد التعصب ضد الصهيونية . واستطاع بعد سنوات قليلة أن ينتزع اعجاب ونستون تشرشل وغيره من كبار السياسيين البريطانيين . وكان خصب الخيال ، زلق اللسان ، أكسبته مغامراته فى فلسطين والحبشة كثيراً من الصفات الرفيعة فذاع صيته وانتشر .

حياة قاسية

كانت حياتنا خارج الخرطوم قاسية رغم بساطتها ، يصعب على شباب اليوم من الأوربيين ان يحتملوها . وكان منزلى يتألف من غرفتين جدرانها مشيدة من الطوب الأحمر ، وسقفها من الزنك وأرضها مغطاة بالخرصانة ، وحمام ليس فيه ماء .. ومطبخ وغرفة للخدم ، واصطبل للخيل ، وعدد من مراحيض الجرادل موزعة فى فنائه . وكانت ابواب الحجرات والنوافذ من الخشب مغطاة بسلك النملية بدلاً عن الزجاج . ولم يكن بالمنزل برندة ولاحديقة . ومع هذا كنت فخوراً به لتواضعه وبساطته . وكان خالياً من الأثاث ، ولكنى اشتريت له عنقريباً ومقعدين وكنبة خشبية ومنضدة صغيرة ، كل هذا بسبعة جنيهات مصرية ، واستخدمت أحد النجارين ليعمل لى رفاً أضع فيــه كتبى. ولم يكن لى مذياع ولاثلاجة ، أنام معظم أيام العام

فى الفضاء تحت ناموسية تقينى لسعات الناموس والحشرات ، واتدثر بثوب خفيف . ولم أحظ بالسكن فى بيت يضاء بالكهرباء الا بعد الحرب العالمية الثانية . وكنا قبل ذلك نعتمد على الفوانيس ورتائن الباتروماكس والشمعدانات فى الإضاءة التى ننشدها ليلا . والشمعدان هذا أسطوانى الشكل ، به لولب . يمكن بواسطته رفع الشمعة الى أعلا كلما احترق جزء منها ، وله زجاجة مستديرة تقى الشمعة من الرياح فلا تنطفىء . وكانت الزجاجة محلاة باللون البرتقالى وبعقود من السكسك فى حافتها السفلى .

أربعون جنيهاً

كان مرتبى الشهرى آنذاك أربعين جنيهاً مصريا يخصم منه مبلغ صغير لسداد اشتراكى فى مال الخدمة المعاشية ، ولإيجار منزلى ، وقيمة المـــاء الذى كان يمدنى به يومياً عامل أثيوبي يحمله فى قربة كبيرة . واستطعت من مرتبى أن أشترى فرساً ، وان أوفر له غذاءه من الذرة والعلف ، وزدت عدد خدمى باثنين آخرين أحدهما سايس يعنى بحصانى ، أطعمهم وأكسوهم علاوة على المرتبات التى يحصلون عليها منى . وكانت لى احتياجات أخرى ، منها خيمة للرحلات والمأموريات . وكان ثمنها حينذاك خمسين جنيهاً مصرياً ، لهذا أمضيت أشهرى الستة الأولى مثقلاً بالديون وكان مرتبى يزيد بعلاوة قدرها خمسة جنيهات شهرياً كل عام مما أعاننى على تحسين موقفى المالى . حقاً لقد كانت مرتباتنا ضئيلة !

كان ميجر ايفانز يرى انه كلما ابتعد مفتش المركز عن مكتبه كان أنفع للناس . وهو دون شك محق فيما كان يقول . لهذا كان يشجعنى دائماً على الرحلات الميدانية . وكان يرافقنى فى رحلاتى الأولى . من ذلك مأمورية لنا إلى أعالى نهر الرهد والحدود الحبشية بدأناها فى نهاية نوفمبر وقفلنا راجعين منها فى ليلة عيد الميلاد .

وكان السفر فى ذلك الزمان شاقاً يقتضى دقة فى الإعداد ، بتجهيز الجمال التى تحملنا وستة حمير تحمل أمتعتنا وخدمنا . وكانت الحدود الحبشية حينذاك مسرحاً لنشاط عصابات الشفتة وقطاع الطرق المسلحين ، لذلك أخذنا معنا فى تلك الرحلة ثلاثة من رجال الشرطة راكبى الجمال . وعلى الرغم من شدة البرد فقد كنا نسافر

فى الصباح الباكر وفى العصر ، غرضنا زيارة الأهليين فى القرى المنتشرة على امتداد الطريق، نتوقف فيها لمقابلة الشيوخ والعمد ورؤساء العشائر . وكانوا كثيراً مايغمروننا بكرمهم الفياض ، يقدمون لنا مشروب الأبرى والشاى والقهوة واللبن والبسكويت ، فتمتلىء بطوننا حتى يصعب علينا تناول وجبة الغداء . وكان الكرم وتبادل الهدايا طابع الإدارة حينذاك على الرغم من أننا كنا نتهيب تناول الأطعمة السودانية خشية ماتسببه لنا من عسر فى الهضم . وكانت الهدايا تأتينا فى شكل خراف وماعز نذبحها فنأكل من لحومها ونطعم مرافقينا ، ونسمر مع الشيوخ ، ونحتسى معهم الشاى والقهوة على ضوء النار التى نوقدها فى وسط معسكرنا .

جرت العادة فى ذلك الوقت أن نستحم ونغير ملابسنا قبل تناول وجبة الغداء مما يبعث فى نفوسنا شيئاً من الحيوية والنشاط بعد عناء العمل فى النهار. وكان خدمنا يحذون حذونا فى هذا . وكنا نرتدى ملابس بسيطة تتكون من بنطلون وقميص أبيض واحذية عالية تقينا من لسعات الناموس . وكان الحمام يختلف من مكان لآخر . ففى رئاسة المركز أو المديرية يمكن الاستمتاع بحمام عصرى مريح ، الماء تأتيه عبر مواسير برميل يصب الخادم فيه الماء الساخن . أما فى المأموريات فقد كنا نستحم داخل صندوق خشبى مبطن بمشمع ، نجلس القرفصاء داخله .

ووصلنا نهر الرهد بعد اسبوع من مغادرتنا للقضارف، وهو ينبع فى الحبشة وينحدر شمالا ليقترن بالنيل الأزرق ، ويفيض صيفاً ، ويتدفق فى قوة كاسحة حاملاً كميات كبيرة من الطمى يرسبها بين الأشجار العالية التى تحيط بضفتيه . أما فى الشتاء فيتوقف تدفقه ، ويغيض ماؤه فلا يبقى منه غير مستنقعات قليلة فى المناطق المنخفضة. وقضينا ليلتنا الأولى على سفح جبل صغير . وفى اليوم التالى استيقظت مبكراً وصعدت إلى قمة ذلك الجبل فاذا سفحه مغطى بأشجار الهشاب التى تنتج الصمغ العربي، وهو مصدر رزق لأهل السهول الوسطى من السودان . وكان سهل الجبل يبدو منبسطاً أمام ناظرى ، ومجرى النهر يتلوى كالثعبان ، تحف بجانبيه أشجار خضراء اللون ، وكانت تقف تحت الجبل قرية ذات أكواخ من القش . وجلست على صخرة أتأمل نشاط القرويين فى ذلك الصباح . كان هناك مجموعة من النساء تنشلن الماء من البئر ، وكنت أسمع أصواتهن تتخللها ضحكات عالية . وكان نهيق الحمير يختلط بعواء

الكلاب ، والدخان الأسود ينبعث فى البيوت يحمل معه رائحة الطعام التى تذكرنى بأفريقيا وبغيرها من الأماكن التى زرتها وعملت بها فيما بعد ، كنيران قبائل الصحراء فى الجزيرة العربية التى يشعلونها من أشجار الشوك أو روث الجمال ، والأمطار تهطل فى أماكن بعيدة ، والخراف والإبل تتجمع حول الآبار لترد الماء ؛ ورائحة النبات الأخضر فى أفريقيا ، وزهور البرتقال فى فلسطين ، كل هذا يثير فى النفس الذكريات كما تثيرها أصوات الرجال ، وقطعان الحيوان تأتى من بعيد ، وصوت الرياح العنيفة التى تهب فجأة وتتوقف فجأة ، وصوت المطر المنهمر على الزنك فى سطوح المنازل ، أو مشمعات الخيام ، واصوات البط والأوز البرى ، ونعيق الضفادع ، وحداء الرعاة يختلط بزئير الأسد فى الليل ، وصياح الديوك يمتزج بصوت المؤذن عند الفجر .

ورأيت من قمة ذلك الجبل رجلين يركبان حمارين قصيرين تكاد أرجلهما تلامس الأرض وهى تتحرك فى أنسجام مع حركة الحمارين ، وعلى كتف كل منهما معول يحفظ توازنه ، يتجهان نحو مزارعهما الواقعة بين الأشجار . ورأيت معهما جملا يحمل أثقالا . وكانت تلك المناظر التى تقابلنا يومياً فى رحلتنا تلك على نقيض مناظر الريف الانجليزى السندسية الخضراء التى تركتها وراء ظهرى وكان مطلوباً منى أن أتأقلم بسرعة مع هذه البيئة الجديدة وعلى هذا الضرب من الحياة . وبدت منى التفاتة الى معسكرنا فرأيت الخدم يضعون الأحمال على ظهور الجمال ، ورأيت ميجر ايفانز يتحدث إلى صول الشرطة الذى كان يرافقنا فهبطت من الجبل وسرت نحوهم .

أعمال مفتش المركز

وتعرفت خلال الأسابيع التالية على الأعمال التى ينتظر من مفتش المركز أداؤها أثناء رحلاته الميدانية . ففى كل قرية كان الأهالى يحدثونا عن الحصاد ، وعن الحاجة لشق طرق العربات ، أو بناء معبر على النهر . وكانت المنطقة فى ذلك الوقت قد عرفت حديثاً اللوارى وسيلة لنقل المحاصيل بدلاً عن الدواب . وكان من أكثر مطالب الأهلين الحاحاً حفر آبار عميقة ، وانشاء شفخانات ، وتشييد مدارس لأبنائهم واسواق لممارسة نشاطهم التجارى . وكنا أيضا نستمع لشكواهم فى أهتمام وعناية ،

ونتسلم من بعضهم عرائض كتبوا فيها مايريدون . وكانت كل قرية تختار رجلا منها ليتحدث إلينا نيابة عن أهلها ، يجلس على الأرض أمامنا ويلقى علينا حديثاً طويلا وهو يضرب بعصاه الأرض أو يرسم فيها . وقد درج السودانيون الا يخشوا المطالبة بما يحسبونه حقاً من حقوقهم ، وألا تأخذهم فى ذلك لومة لائم . وكان أسلوب حديثهم مختلفاً ، منهم من يتحدث بصوت خافت محاولاً إخفاء الحق بغية النفاذ إلى غرضه ، ومنهم من ينفعل ويغضب ، فيرتفع صوته ، ويشتد إصراره ، وترتفع تبعاً لذلك أصوات مؤيديه تشهد له بقول الحق . وكان شيوخ القبائل يرأسون المحاكم يجلس معهم – للفصل فى القضايا – بعض كبار القرية أو القبيلة . وكانت هذه المحاكم القبلية تنظر معظم القضايا ولكنه كان للمتقاضين حق الاستئناف للحكومة . وخلال جولتنا تلك أحيل علينا عدد غير قليل من الاستئنافات لننظر فيها .

وبعد مضى أيام على مسيرتنا إلى أعالى نهر الرهد عبرنا النهر ووصلنا إلى نهر الدندر الذى يجرى محاذيا للرهد ، وصرنا على مقربة من الحدود الحبشية ومن ثم اتجهنا الى الشمال الشرقى نحو القلابات الواقعة على الحدود ، وكانت منطقة حافلة بالصيد البرى ، والأنهار مليئة بالتماسيح ، ورأينا فى الطريق فيلاً وزرافة ، وأفلت من طريق قافلتنا قطيع من الغزلان . ورأينا فى الطريق الى القلابات فهداً ينقض على غزال فيسقطه ولكن رجالنا كانوا قد وصلوا اليه قبل أن يجهز عليه ففر تاركاً فريسته وراء ظهره . وقام أحد رجالنا بذبح الغزال قبل موته فطعمنا به فى وجبة الغداء .

وبأبتعادنا عن منطقة الأنهار أخذت طبيعة الأرض تتغير وتختلف وصار سطح الأرض خشناً يكسوه الحصى والصخور . وحتى الغابات استحالت أشجارها إلى أغصان شوكية وصادفنا فى طريقنا معسكراً لبعض مهربي سن الفيل ، كانوا قد هجروه قبل لحظات من وصولنا هرباً منا . وكانت نيرانه لم تزل مشتعلة فيه عند وصولنا ، وأرضه مغطاة بأعداد كبيرة من علب الكبريت الفارغة وأعواد الكبريت التى أزيلت رؤوسها ليستخدم بارودها فى صنع الطلقات . إذ كان الحصول على البارود بغير هذه الطريقة ضرباً من المحال .

ومضينا قدماً فى منطقة لم تتم تسويتها ولامسحها حتى بلغنا القلابات فى اليوم

السابق لعيد ميلاد المسيح ، وقد أخذ التعب منا كل مأخذ،وبلغنا درجة من الاعياء عظيمة . . وهناك استقبلنا قائد الحامية وهو البريطاني الوحيد الذى يعيش فى ذلك المكان ومنه علمنا أنه لم ير أوربياً واحداً فى منطقته خلال الأشهر الستة الماضية .من هنا كان استقباله لنا حاراً واكرامه عظيماً إذ أعد لنا افطاراً ضخماً . وكانت رحلة العودة من القلابات للقضارف بالعربات التى قطعت بنا الأميال المائة الباقية من الطريق . وكنا قد أعددنا تقريراً مفصلا لرحلتنا تلك وصفنا فيه الطريق الذى سلكناه وصفاً دقيقاً وبينا معالمه .

الفصل الثالث
مركز القضارف وأعماله

فى القضارف نلت كثيراً من الخبرات وتعلمت كثيراً من الأعمال . . . كانت ساعات العمل الرسمية تبدأ فى التاسعة صباحا وتمتد إلى الثانية بعد الظهر طيلة أيام الأسبوع ، ماعدا أيام الجمع ، التى كانت العطلة الرسمية للمسلمين ، ومع هذا فمعظم أعمالنا كانت تتم خارج نطاق الساعات الرسمية ،ننهض فى الساعة السادسة صباحاً فنمضى ساعتين أو أكثر فى العمل الميدانى على ظهور الجمال قبل تناول افطارنا ، ونعمل ساعتين أخريين فى المساء قبل تناول العشاء ، لغة التخاطب فى أعمالنا هى العربية . وكانت الحسابات تسجل فى دفاترها باللغة العربية أيضا ، ولكن الرسائل والخطابات كانت باللغة الانجليزية . وكانت رئاسة المركز مشيدة فى شكل مربع يحيط به سور حجرى منخفض ، والمبانى فيها تتألف من مكتب المفتش والمأمور والكتبة والمحكمة والخزينة ومخازن السلاح والمخازن العامة ، ومن غرفة للحراسة يحتجز فيها المتهمون قبل تقديمهم للمحاكمة . وكان يقوم على حراسة المبانى وأمنها ستة من رجال الشرطة ، ويرفرف عليها العلمان البريطانى والمصرى فى ساعات النهار ويطويان عند غروب الشمس على أنغام الموسيقى . وكان الحرس يستعد كل صباح لطابور التفتيش عند وصول المفتش . وهذا الاجراء اليومى كان ضروريا للحفاظ على هيبة السلطة وقوة الحكومة .

ولم تكن هناك قيود على دخول ساحة المركز ، لهذا كنت تجدها مكتظة بذوى الأغراض ، وأصحاب القضايا ، والذين يرغبون فى التجنيد للشرطة ، والمقاولين الذين يتنافسون ، عن طريق العطاءات ، على توريد احتياجات الشرطة ، أو صيانة منازلهم . ويحضر إلى المركز أيضاً بعض وجهاء المدينة ليسمروا مع كبار الموظفين .

ويقوم مكتب المأمور باستلام العرائض والشكاوى (العرضحالات) وهى كثيرة جداً ، وكنت تجد الشهود يقفون فى فناء المبنى ينتظرون دورهم للمثول أمام القاضى دلاء بشهادتهم ، أو يجلسون تحت أشجار النيم . وكانت اجراءات القضايا التى

ينظرها القاضى تبدأ بتقديم شكوى مكتوبة فى عريضة عليها رسم قدره خمسة وعشرون مليماً . ولما كان كثير من الناس أميين لايعرفون القراءة والكتابة ، فقد سمح لكاتب العرائض أن يجلس على الأرض فى فناء المركز وان يضع أمامه منضدة منخفضة عليها دواية الحبر وقلم البوص . وكنت تراه مستغرقاً فى التفكير مع زبائنه وهو يستمع الى شكواهم . وكان هناك أيضاً كاتب للخطابات أمام مكتب البريد . حقاً كان مظهر المكاتب وفنائها يوحى بالنشاط والحيوية طيلة أيام الاسبوع ماعدا أيام الجمع .

وكانت الحياة الاجتماعية فى القضارف محدودة جداً . وكثيراً ما كنا ندعى لحفلات الشاى التى يقيمها الضباط السودانيون بالحامية أو الموظفون فى ناديهم . وكنا فى مثل هذه الحفلات نستمع إلى الألحان الموسيقية تعزفها الفرقة التابعة لحامية العرب الشرقية ، ونستمع فى نهاية الحفل إلى السلامين الملكيين الانجليزى والمصرى . وفى أمسيات الخميس من كل أسبوع كنت أصطحب ميجر ايفانز الى ميز الضباط البريطانيين حيث نتناول طعام العشاء معهم على أنغام موسيقى «القرب» من أحد الجنود وهو يتحرك بخطى بطيئة حول المائدة التى نجلس عليها . وكنا نجلس بعد العشاء على مقاعد من القماش فى الفناء نتسامر ونتجاذب أطراف الحديث حتى يأمر مضيفنا أحد خدمه بتقديم أكواب الماء للحاضرين جميعاً . وكانت تلك أشارة منه بانتهاء الحفل .

وكنا نلعب البولو مرتين فى الاسبوع ، ونمارس لعبة التنس فى ملعب متصدع وكان يشترك معنا فى لعب البولو بعض الضباط البريطانيين والسودانيين العاملين فى الحامية ، ويشترك معنا أيضاً الطبيب المصرى ومأمور المركز ، إبراهيم أفندى عبدالرازق على الرغم من أنه لم يكن من عشاق هذه اللعبة . وكان بعض الموظفين السودانيين يواظبون على الاشتراك فى لعبة البولو ويستمتعون بها . وكانت الحماسة للعبة البولو تساعد على تحسين التقرير السرى للموظف مما قد يؤدى الى ترقيته . وهذا يقال عن الموظفين البريطانيين والسودانيين على السواء . ويهمنى أن أعترف بأنى رغم تعلقى بهذه اللعبة لم أكن ماهراً فيها ، أتحرك فى أطراف الميدان ولا أقتحم . وكان الحصانان اللذان أمتلكهما بطىء الحركة ، أكبح جماحهما بشد لجاميهما ، ولاأتحمس لمنافسة الضباط البريطانيين لخشيتى من أندفاعهم . وكنت أنزوى دائماً فى ركن قصى من الملعب مما كان يخجلنى . ولعل اللاعبين السودانيين كانوا يشاركونى هذا الشعور ،

إذ كانت اللعبة غريبة عنهم ، وكانوا حديثى عهد بها . وكنا ننظر باعجاب شديد لكل ضابط سودانى يبرع فى اللعب وينافس قائده . ولكن هذا كان نادر الحدوث .

شــق طريق العربات

كانت المهمة الأولى التى عهد إلى بها مفتش المركز هى شق طريق للعربات فى المنطقة الوعرة الواقعة على جانبى نهر بحر السلام الذى ينبع من الحبشة وينحدر حتى يلتقى بالنيل الأزرق قرب عطبرة. كانت المنطقة مليئة بالأشجار الشوكية تحف بها مرتفعات شديدة الانحدار ، وخيران تقع خلفها أخاديد عميقة . ولم نكن نطمع فى أن تكون طرقنا صالحة للسفر طيلة أشهر العام فذلك كان ضرباً من ضروب المستحيل نسبة لشدة هطول الأمطار فى الخريف ، لهذا كنا نهتم بشقها وتعبيدها للاستعمال خلال فصل الجفاف وحده . وكان الطريق الحيوى الذى يربط كسلا بالقضارف يمر بهذه المنطقة الوعرة ، وكانت الأخاديد عائقاً أمام العربات تسد عليها الطريق ، وكثيراً ماكانت عجلاتها تغوص فى الرمال الناعمة فتتعطل مسيرتها لساعات طويلة ، ويتطلب اخراجها جهــداً كبيراً ، وذلك بردم الطريق تحــت العجلات أو تغطيته بأغصان الأشجار والقش . وكان قد صحبنى فى تلك المهمة شرطى سودانى من ابناء المنطقة ، يعرفها جيداً ، واستعنا أيضاً بشيخ القرية المجاورة ، وحملنا كثيراً من المعدات اللازمة لتصريف العمل كالفؤوس ، والطوارى ، والجرافات ، والسلال لنقل التراب .

ونصبت خيمتى وأقمت معسكراً . وأمضينا أيامنا الأولى فى التعرف على المنطقة بالتحرك على طول النهر صعوداً وهبوطاً لاستكشاف خير الأماكن لشق الطريق وكنا نفضل أن يمر عبر الأماكن ذات التربة الطينية . وكان لابد للطريق فى مثل هذه الأرض من أن يكون متعرجاً كمسار الثعبان ، خاضعاً لطبيعة الأرض . وكنا نغطى الأرض الرملية الرخوة بالحصى ، ونبدأ عملنا كل يوم فى الساعة السادسة صباحاً ، ونواصله حتى منتصف النهار ، ثم نستأنفه مرة أخرى فى الساعة الثالثة بعد العصر حتى مغيب الشمس . وكنت فى معظم الأمسيات أصطحب الشرطى إلى القرية لزيارة الشيخ عبدالرحمن على لتناول الشاى أو القهوة معه والاستئناس به . وكان رجلاً

رقيقاً كبير السن حفلت سنوات شبابه بكثير من المغامرات والعنف. وقد ساعدتنى هذه الجلسات معه على تحسين لغتى العربية .

وبعد اسبوعين من بداية عملنا انتهت مهمتنا بنجاح ، وعدنا إلى القضارف يغمرنا الشعور بالرضا على الرغم من ادراكنا بأن ما أنجزناه لايقوى على الصمود أمام الأمطار الغزيرة ، والسيول الجارفة التى تجتاح تلك المنطقة ، وأنه يتحتم علينا أن نعيد العمل عند نهاية موسم الأمطار بمعدات قديمة متهالكة .

وكان السودان والأقطار المجاورة له قد عانى خلال الأعوام الثلاثة الماضية من الأضرار الناجمة عن أسراب الجــراد التى تنقض عليه كأنها جيوش غازية ، وتأتى على الأخضر واليابس من الأشجار والشجيرات والمراعى والمحاصيل الزراعية . واتبعنا وسائل شتى لمكافحتها ، بعضها أصاب نجاحا أسعدنا . كنا نحدد أماكن فقس بيضها فنتلفه ، أو نرش العتاب (صغار الجراد) بالسموم بمجرد فقسه ، أو نحرقه وندفنـــة فى خنادق نحفرها لهذا الغرض ..

وفى عام ١٩٣٢ كنا نتوقع غزواً كبيراً من أسراب الجراد . وأكملنا استعدادتنا لمكافحته . وحدث ماتوقعناه ، ولكنه لم يرق إلى مستوى حجمه فى الأعوام الماضية ومع هذا فقد كان غزوه ، بصرف النظر عن حجم أسرابه ، يثير الرعب فى النفوس وكانت اسرابه تبدو لنا أول الأمر كعاصفة ترابية ذات لون رمادى تحجب أشعة الشمس دون جلبة سوى صوت أجنحتها وهى ترفرف فى الهواء . ثم تحط عشرات الآلآف منها فتأخذ فى التهام النباتات الخضراء بنهم شديد . وفى وقت ضيق وجيز جداً تتعرى الأشجار من أوراقها الخضراء . وتختفى كل مظاهر الخضرة والحيـــاة . بينما تواصل أسراب أخرى زحفها إلى الامام كأنها تسير وفق خطة مرسومة ، وتحت قيادة موحدة . وكانت تتبع الجراد أسراب من الطيور تأكلها ، نرحب بها ، ونعتبرها حليفاً لنا فى حربنا ضد الجراد . وكان القرويون يكافحون الجراد بطريقتهم البدائية وهى الضرب على الصفيح الفارغ لإحداث أصوات تفزعه وتبعده عن مزارعهم . وكانت هذه طريقة محدودة الأثر .

واستمرت استعداداتنا لمكافحة الجراد خلال عامى ١٩٣٣ و١٩٣٤ حيث قمنا

بتوزيع أطنان من ردة القمح المخلوطة بالسم على جميع المراكز والنقاط الاستراتيجية وزودناها بكل ماتحتاج اليه لإتلاف البيض فى مناطق الفقس . ويبدو أن مكافحتنا للجراد فى الأعوام السابقة كانت ذات فعالية ، إذ جاء الغزو محدوداً فى حجمه ، قاصراً على بعض مناطق المركز دون غيرها .

وشهدت منطقة الشرق الأوسط فى السنوات التالية حملات كثيرة مكثفة لمكافحة الجراد، يقود كلا منها رجل متخصص فى علم الحشرات، وبهذا أمكن احتواء هذا الخطر الداهم أول الأمر . تم القضاء عليه ، اذ تم أكتشاف مناطق توالده فى الصحراء واقتلاع جذوره . وبهذا تم النصر فى أعقاب الأربعينات على اسراب الجـــراد .

أول قضية أنظرها

وكنت قد نظرت أول قضية ترفع لى بعد شهرين أو ثلاثة من وصولى إلى القضارف ، وهى تتعلق بسرقة مخلوفة (سرج) جمل ، نظرتها فى غيبه مفتش المركز الميجر ايفانز عند سفره فى مأمورية لمدة أيام قليلة عهد الى خلالها بتصريف شؤون المركز . وكانت كافة عناصر القضية متوفرة ، والشهود موجودين،والمتهم فى السجن ينتظر انعقاد المحكمة . ورأيت أن أسير قدماً فى نظر القضية ولكنى ضللت الطريق ، وأخطأت فى صياغة التهمة . ثم أخطأت فى تحديد المادة المناسبة من قانون العقوبات ، كما أخطأت فى حصر البينات المؤيدة للتهمة ونقاط دفعها . وأرسلت الوثائق الخاصة بهذه القضية إلى كسلا ليقوم قاضى المديرية ومديرها بتأييد الحكم أو مراجعته . وهالهما كثرة الاخطاء القانونية التى ارتكبتها ، فأعيدت لى الوثائق بعد فترة قصيرة وقد علق عليها قاضى المديرية بأنى تنكبت طريق الصواب . وعلى أثر هذا جاءنى توجيه صارم بأن أنكب على دراسة قانون العقوبات وقانون الاجراءات الجنائيـــة . وتلقى مفتش المركز أيضاً خطاباً شديد اللهجة من مدير المديرية، يأمره فيه ببذل مزيد من الجهد فى تعليمى ، قبل أن يسمح لى بالنظر فى مثل هذه القضايا منفرداً ودون رقابـــة .

بعد أسابيع قليلة من هذه القضية وقعت حادثة مروعة أسفرت عن مقتل أحد

التجار السودانيين ، ونهب أمواله ، على أثر هجوم خمسة من قطاع الطرق الأحباش عليه وهو فى طريقه إلى القلابات . وقامت قوة من الشرطة لتعقب الجناة ومطاردتهم والقاء القبض عليهم . وتم ذلك . وقدموا للمحاكمة حيث ثبتت ادانتهم ، وصدر الحكم عليهم بالإعدام ، وأيده الحاكم العام وفق منطوق القانون . ولم يكن فى سجن القضارف مشنقة ، فتقرر حفظ السجناء حتى يتم ارسالهم إلى كسلا لتنفيذ الحكم عليهم. وخصصنا لحفظهم احدى الزنزانات الحصينة فى سجن القضارف ، وكان لها نافذة واحدة ذات سبعة قضبان ثقيلة . تقع على ارتفاع سبعة أو ثمانية أقدام فوق سطح الارض،وتطل على الشارع . وتركناها مفتوحة ليمر بها الهواء . وفى صباح أحد الايام قمت ومعى صول السجن أثناء التفتيش الدورى بدخــول تلك الزنزانة ، فاذا بها خالية من السجناء . ويبدو انه كان لهم شركاء خارج السجن ، ألقوا اليهم أثناء الليل بمنشار حديدى مكنهم من قطع القضبان الحديدية ، والهرب عبر النافذة . وتأكد لنا عند اكتشاف الحادث أنهم لابد فارون الى الحدود الاثيوبية ؛ إذ لا ملاذ لهم غيرها ؛ وكانت تبعد مسيرة مائة ميل تقريباً . وهيىء لنا أن شركاءهم لابد أن يكونوا قد زودوهم بشيء من الماء . ولكنه كان لابد لهم من الحصول على مزيد منه من بحر السلام ، أو من الآبار فى القرى . وكان عليهم أيضاً أن يتجنبوا الطريق العام حتى لايقعوا فى الأسر مرة أخرى ، وان يسلكوا الطريق الخلوى وسط الغابات ، وهو طريق لا ماء فيه .

ولم يستطيع القصاص الخبير فى تتبع الأثر أن يذهب بنا بعيداً عن أطراف المدينة فاضطررنا أن نرسل عدداً من رجال الشرطة فى مجموعات لاستنفار الشيوخ والعمد لتعقب السجناء الهاربين . وكان على أن أتجه بسيارة المركز إلى أقرب نقطة من بحر السلام ، ثم اتجه بمحاذاة النهر فى اتجاه الحدود الحبشية . وكنت أتوقف فى القرى على الضفتين لأخطر سكانها بالأمر ، واحثهم على مطاردة السجناء الهاربين . وكانوا يتجنبون القرى السودانية حتى لايفتضح أمرهم ، ويسلكوا طرقاً غير مأهولة عبر الأحراش فى سرعة فائقة ، فاستطاعوا خلال ثلاثة أيام من هروبهم أن يقطعوا نصف المسافة نحو غايتهم ، ولكن الماء الذى يحملونه معهم كان قد نضب ونفذ ؛ فدفعهم الظمأ لحفر جذور الشجيرات علهم يصيبون فيها قطرات من الماء . وفى اليوم الخامس

لاحظ أحد رجال الشرطة سرباً من الطيور الجارحة تحلق عند نقطة معينة وتتزايد أعدادها ، فاتجه برجاله نحوها ، ووصلها فى المساء ، ووجد الطيور فيها تنقض على جثث أربعة من السجناء ، بينما كان خامسهم ملقى على الأرض فى الرمق الأخير من حياته ، فتم اسعافه ونقله إلى كسلا ليلقى مصيره المحتوم بعد اسبوعين من اعادة اعتقاله .

وفى مارس زارنا فى القضارف مدير المديرية المستر بيلى ، وسمح لى أن أسافر بمفردى فى رحلة ميدانية على ظهور الجمال إلى نهر عطبره ، وذلك بأن أعبر نهر ستيت قرب الحدود الحبشية الارترية ، ثم أذهب بمحاذاة النهر إلى نقطة بالقرب من خشم القربة ، واتجه بعد ذلك شرقاً إلى الحدود الارترية فكسلا . وكان الغرض من هذه الرحلة الطويلة أن أقوم بمسح لنهر ستيت ونهر عطبرة ، وأن أحدد الأماكن التى يسهل فيها عبورها . وطلب منى بالاضافة الى هذا أن أقوم باجراء مسح شامل للمنطقة ، أوضح فيه أنسب الأماكن لشق طريق للعربات يربط كسلا بنهر عطبرة ، وأن أنقب عن الطريق القديم الذى كان الطليان قد شقوه عند سيطرتهم على هذه المنطقة قبل أربعين عاما . وكان ذلك الطريق قد أندثر تماماً بمضى الزمن . وكان مطلوباً منى أيضاً أن أعد تقريراً مدعماً بالخرط الدقيقة ، موضحاً الاتجاهات والمسافات وأن ألتقى بأهل المنطقة وأبحث معهم مشاكلها ، وأوفر الحلول لما استطعت حله منها . واستغرقت هذه الرحلة عدة أسابيع . وكانت ذات نفع عظيم لى فى تحسين مستوى لغتى العربية ، ومتعة كبرى بالجلوس حول النار للاستماع الى شيوخ القرى وهم يقصون أحداث الماضى ، ويتحدثون عن المحاكمات وسير الحياة فى فترة المهدية السابقة لموقعة أم درمان . وكانت وجوههم تنضح بالبشر ، وتنم عن التواضع والعطف ، ونفوسهم عامرة بروح الدعابة . وكان مجلسنا يمتد إلى ساعات طويلة من الليل ، نحتسى خلالها الشاى ، ونزود النار بالحطب كلما خبا نورها ، وكانت جمالنا ترقد على مقربة منا ، والسماء تتلألأ بالنجوم ، وكنا نعرف بعضها كأنجم العصى والمحراث التى تبدو خفرة فى الأفق البعيد . وكان النجم يلوح لنا أيضاً من بعيد ونحن نستيقظ من النوم فى الصباح الباكر .

وكنا نحمل معنا مانحتاج اليه من سكر وشاى وبن ودقيق وبصل ومأكولات أخرى ، ونعتمد فى الحصول على اللحم الطازج على مانصطاده من الغزلان ، غير أنى لم أكن ميالاً لاصطياد هذه الحيوانات الوديعة الرشيقة ، أفضل عليها دجاج الوادى رغم صعوبة أصطياده بسبب سرعة حركته . وتبين لنا من التجربة أن خير الأوقات لاصطياده هو الأصيل حين تتجمع منه أعداد كبيرة على أغصان الشجر . عندئذ يمكن اسقاط مجموعة كبيرة منه بطلقة واحدة .

الأســد يختفى

وفى « قيرة » التى تقع على نهر ستيت ألح على السكان أن أقوم بأصطياد أسد كان يهاجم ماشيتهم . وكانت الأسود كثيرة فى تلك المنطقة تسعى وسط الأعشاب الغزيرة على ضفة النهر وكثيراً ماكنا نسمع زئيرها المفزع ليلاً . ولم تكن بندقيتى من النوع الذى يصلح لاصطياد الأسود ، ولكن كان مع رجال الشرطة المرافقين لى بنادق من العيار المناسب . وبدأت محاولتنا لاصطياد الأسود قبل حلول الفجــر . وكان يرافقنى أحد القرويين وهو يحمل فأساً ضخمة على كتفه ، وآخر ليدلنا على الطريق . ولعله لم يكن واثقاً من مقدرتنا على أصطياد الأسد ، أو هو لم يكن متفائلا افى العثور عليه . وواصلنا مسيرتنا منذ شروق الشمس إلى منتصف النهار . نسير فى صف واحد على أطراف أصابعنا وبحذر شديد ، ونتوقف كثيراً لنرهف السمع . وطرقنا دروباً كثيرة متعرجة ، وصعدنا الى أعالى الصخور ، وهبطنا الى بطون الأودية على ضفة نهر عطبرة . وكانت الأرض صعبة المسالك ، تغطيها أعشاب كثيفة يتجاوز طولها قامتنا . وأخيراً وبعد لأى رأينا آثاراً لأحد الاسود ، ولكننا لم نستطع متابعتها . وبعد خمس ساعات من البحث والسير ، أخذ الأعياء منا كل مأخذ . فقررنا العودة على أعقابنا . وحتى لانرجع للقرية صفر اليدين اصطدنا تمساحين من التماسيح التى كانت تهاجم أغنام القرية . ومما يؤسف له أن لم أر فى السودان أسداً طيلة أقامتى فيــه .

كانت الانهار تعج بالتماسيح . وقد شهدت أعداداً كبيرة منها ترقد على الطين فى حافة الماء من طائرة حلقت بي عام ١٩٣٢ على طول ستيت وبحر السلام . كانت

تهجم على الرجال والنساء عندما يدخلون الماء الضحل لغسل ملابسهم ؛ أو تهجم على الأطفال وهم يردون الماء من النهر . وكدت ذات مرة أن أقع فريسة لأحدها في نقطة منعزلة على شاطىء نهر ستيت ، فقد جلست ذات صباح لأدخن غيلونى فى ظل شجرة . ولاحظت حركة خفيفة على سطح الماء ؛ ثم ظهر أنف صغير وراءه عينا تمساح يربض فى الماء فى انتظار فريسته . وكانت للتماسيح طريقتها الخاصة فى أصطياد فرائسها من الآدميين أو الحيوانات ، وذلك بأن يقترب التمساح خلسة من الأماكن الضحلة على حافة الماء ؛ ثم يقذف بجسمه فى حركة دائرية ، ويضرب فريسته بذيله فى اتجاه الماء . ولم يسعفنى الا تقهقرى الى الوراء فى حالة شديدة من الرعب ، طلباً للنجاة والسلامة .

ومنحنا أنفسنا عطلة فى اليوم الأخير لنا بمنطقة خشم القربة ، ونحن على مسيرة أربعة أيام من الحدود ومن كسلا . وكان علينا أن نحمل من الماء مايكفينا ثلاثة أيام . وقضينا ذلك النهار نسبح فى النهر ، ونتسلى بمراقبة القرود وأفراس البحر فى عرض النهر ، لانرى منها غير أنوفها وآذانها . وكنا نرى أيضاً عشرات الطيور تقف على أغصان الأشجار وهى تميل بها لملامسة الماء حيث ترشف منه ماتشاء ، رغم مافى ذلك من خطر انقضاض التماسيح عليها .

وفى صباح اليوم التالى صعدنا الى الصخور المحاذية لنهر عطبرة تتبعنا جمالنا وما هو الا وقت قصير حتى بلغنا السهول المنبسطة . ومن هناك ألقيت نظرة أخيرة على النهر فرأيته صافياً ينساب فى صمت ليقترن بالنيل الأزرق ؛ تحيط به أشجار النخيل والتين البرى . وبعد نصف ساعة من بدء مسيرتنا طلعت الشمس بأشعتها الحارة ، وكان الوقت صيفاً ، والأرض مغطاة ببساط من العشب الناشف ، وبالأشجار ذات الأشواك . وتراءت لنا قمم جبل كسلا شامخة فى الأفق البعيد . وفى عصر اليوم الرابع وصلنا إلى كسلا بعد ان طوينا مائة ميل .

اجتياز الامتحان والعـلاوة

واستبقانى مدير المديرية المستر بيلى فى كسلا لأكمل فيها تمرينى على العمل القضائى . وكان يتعين على القضاة الجدد من أمثالى أن يجلسوا لامتحان فى اللغة

العربية والقانون . وكان موظفو الخدمة السياسية ملزمين باحراز درجة المرور فى كلا الامتحانين لكى يتم تثبيتهم فى الخدمة المستديمة ، ومنحهم العلاوة الأولى وكان هذا الامتحان يعقد فى شهر يناير من كل عام بالخرطوم . ويسمح لكل واحد بالجلوس له مرتين فقط ، تنهى خدمته بعدهما اذا مافشل فيه . وكان اجتياز امتحان القانون هاماً للحصول على سلطات قضائية تساوى سلطات رئيس محكمة عليا . ومتى أحرز الواحد منا درجة النجاح فى القانون حق له أن يحاكم سائر الجرائم الجنائية بما فى ذلك جرائم القتل . وكنت واثقاً من المامى باللغة العربية ، مطمئناً للنجاح فيها ، ولكنى احتاج لشىء من التمرين فى محاكمة الجرائم الصغيرة ، وتحضير أوراق القضايا الكبرى مما يكسبنى الخبرة اللازمة لاجتياز امتحان القانون .

كان مظهر مدينة كسلا عربياً أكثر منه أفريقياً ، مبانيها من الطوب الأخضر ، مستطيلة ومدهونة بالطلاء الأبيض . وكانت شوارعها رملية تنمو على جانبيها أشجار النخيل والنيم دائمة الخضرة ذات الزهرة الزكية الرائحة . وكان سكان المدينة وزائروها من رجال القبائل يحصلون على احتياجاتهم من سوقها الذى يعمل فيه عدد من التجار ذوى السحنات الفاتحة اللون ، ممن نزحوا اليه من شمال السودان ، من دنقلا وحلفا وبربر ، يبيعون فى حوانيتهم ملح الطعام والسكر والبن والصابون وبعض الاقمشة القطنية . وكان هناك أيضا السروجيون الذين يصنعون سروج الخيل ، وصانعو الاحذية (والمراكيب) الحمراء الفاقعة اللون . ونجد فى السوق أيضاً زرائب للذرة وأكشاكاً للحدادة ، وتشم رائحة البخور والبهارات وانت تخترق السوق ، وكان يحلق فى سماء المدينة أسراب من الطيور الجارحة .

وخصص لسكنى منزل صغير يجاور السجن ، وكان رغم صغره أحسن من منزلى فى القضارف ، به حديقة صغيرة ذات أشجار وورود وزهور ، تسقى من ماء الحمام . ولم يكن بالمنزل ما يضايقنى غير قربة من السجن حيث كان أحد المجانين من النزلاء ينبح طيلة الليل كالكلب ، مما يحرمنى من الاستمتاع بنوم عميق على سطح المنزل فى ذلك الصيف الحار .

وكان المستر* دوقلاس نيوبولد نائباً لمدير المديرية . وقد أسعدتنى الظروف بأن أعمل تحت إدارته فيما بعد لمدة خمس سنوات . وكنت قد التقيت به عند تقديم طلبى للالتحاق بالخدمة السياسية فى السودان قبل شهر من اختيارى فدعانى لمشاهدة فلم « الريشات الأربع » الذى تم تصويره فى البحر الأحمر حيث كان يعمل مفتشاً لمركز سنكات فى ذلك الوقت . ولعل تلك الدعوة منه كانت مدخلاً منه لتقييمى تمهيداً لاختيارى . وكان رجلاً أعزب ، واسع الثقافة ، يتمتع بقدر وافر من الخيال والانسانية . ولما مات فى الخرطوم عام ١٩٤٥ تحت وطأة ضغط العمل والقلق أثناء سنوات الحرب العالمية الثانية ، خلف وراءه أنجازاً كبيراً يعكس جهده المتواصل فى بناء السودان الحديث ، ويتحدث عن أواصر الصداقة العميقة التى كانت تربطه بالمثقفين السودانيين ذوى الميول السياسية . ولعله كان أكثر العاملين بخدمة السودان السياسية تشرباً بروحها ، ولم يكن فى مظهره أو ملبسه مايدل على أنه حاكم استعمارى متسلط ، كان قصير القامة ، متين البناء ، ذا حواجب كثيفة ، يمشى بعرج خفيف جاءه نتيجة جرح قديم أصابه فى الحرب العالمية الأولى . وكان محدثاً بارعاً ، بليغ الأسلوب ساحر البيان ، لا أعرف رجلاً أقدر منه على كسب الأصدقاء وانتزاع الاعجاب والتقدير . وحسبه أنه كان مصدر الهام لكل من عمل معه من السودانيين والبريطانيين على السواء . حقاً لقد كان من حسن حظى أن التقيت به خلال الأشهر القليلة التى أمضيتها فى كسلا .

تختلف نظرة الناس الذين يعيشون فى المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية نحو الأمطار عن نظرة من يعيشون فى أماكن أخرى ، فالأمطار فى الصحراء ، أو على سفوح الجبال القاحلة ، أو قيزان الرمال العطشى تعنى النجاة من المجاعة والموت ، أو قد تعنى الرخاء والخير إذا توالى هطولها موسماً كاملاً أو موسمين متتاليين . عند انتهاء فصل الصيف يبدأ تراكم السحب إيذاناً بمقدم الخريف ، ويستبشر الرجال خيراً وتزداد حركتهم وقلقهم ، ثم تأتى العواصف الرملية أول الأمر يتبعها ازيز الرعد ورائحة أمطار آتية من بعيد . وإذا لم تمطر السماء فى المساء يصاب الناس بالجزع

* سير دوقلاس نيوبولد ولد عام ١٨٩٤م وتوفى فى الخرطوم عام ١٩٤٥م . كان سكرتيراً إدارياً للسودان خلال الفترة ١٩٣٩ - ١٩٤٥م . وقد اشتمل كتاب « إنشاء السودان الحديث » أصدره مشترك . ك . هندرسون على كثير من خطاباته ورسائله وابداعاته .

والخوف ، أما إذا امطرتهم تكاثر تساؤلهم عنها : أتتواتر وتتصل ؟ أتكفى لرى المحصول وتوفير العشب فى المرعى وملء الآبار؟ أيكون مخزون المياه الجوفية كافياً للعام كله ؟ وبعد هطول الأمطار مرتين تزدان الأرض بلون سندسى أخضر على مد البصر وتتزين بالزهور البرية ، وتكثر فيها برك الماء حيث تنعكس عليها صفحة السماء الزرقاء فيزيدها ذلك بهجة وجمالا . وتلك دون شك ـ معجزة إذ كانت هذه الأرض نفسها قبل قدوم الخريف ميتة جرداء قاحلة ، تغطيها أخاديد عميقة . ومع تباشير الخريف تأتى الطيور المهاجرة تشق الهواء بأجنحتها فى رقة ورشاقة ، وتبنى اعشاشها على الأشجار فى القرى حيث يرحب بها القرويون لانها عندهم بشير خير .

أمطار كأفواه القرب

بدأت تباشير الامطار فى كسلا فى منتصف شهر يوليو فانهمرت المياه كأفواه القرب على رؤوس أشجار النخيل ، وأغرقت شوارع المدينة ، وبدأت القبائل الرحل من الرهد والدندر ورفاعة و كنانة واللحويين وغيرهم موسم هجرتهم للشمال سعياً وراء المرعى لماشيتهم . وتسمى منطقة تحرك هذه القبائل من الرحل البطانة . وهى سهل عظيم منبسط يقع بين النيل الأزرق ونهر عطبرة ، تبلغ مساحته نحواً من عشرة آلاف ميل مربع . وقد انعقد العزم وتم الاتفاق بأن يكون هذا السهل مرعى مشاعاً لهذه القبائل من الرحل وفق أسس تم رسمها . ومع ذلك كانت المنازعات والخلافات القبلية طابعاً مميزاً للعلاقات القبلية خلال فترة اقتسام المرعى بالبطانة . واعتادت الحكومة أن تبعث بأحد الأداريين العاملين بالخدمة السياسية فى صحبة هذه القبائل فى ترحالها لفترة شهر أو شهرين ليعمل على فض المنازعات أولا بأول . وتم اختيارى لحسن حظى للقيام بهذا العمل . وزودنى مدير المديرية المستر بيلى بتوجيهاته ونصائحه حدثنى كيف أجوب سهل البطانة لمدة شهرين ، منذ منتصف يوليو الى منتصف سبتمبر ، وأمرنى بزيارة الشيخ عوض الكريم أبوسن ، شيخ قبيلة الشكرية فى مقره بخشم القربة ، وهو شيخ زكى مهاب ، أتناقش معه حول الأماكن التى يريدنى أن أزورها ، وما يلزم أن ألاحظه وأن أكون دائم الاتصال بالدوريات التابعة له وان أنسق نشاط قوتى ، وأنظم تحركها على أساس ذلك ، وان احرص على تنفيذ ما اتفق عليه معه . وأشار على أيضاً بأن أتحرك ببطء إذا كان المرعى جيداً وبهذا أتيح

بجمالى أن ترعى . وأوصانى بأن أحمل معى نسخة من مذكرات المستر أكلاند *
عن الجمال والبطانة لأنها مليئة بالمعلومات . ونصحنى أيضاً بأن أحمل معى نسخة
من كتاب « ألف ليلة وليلة » لاتلو قصصه وأحفظها عن ظهر قلب واقصها على رفاقى
ونحن جلوس حول نار المعسكر . وأشار على بشرب لبن الابل ، وبرصد المعالم
الطبيعية ومصادر المياه التى يمكن استغلالها مستقبلا . وطلب منى أن أحتفظ بسجل
واف للاحداث اليومية . وأخيراً نصحنى بالصعود الى قمة جبل المندرة والدخول
منفرداً فى مغارته لأتمنى فيه ما أشتهى دون أن أخبر أحداً بما تمنيت .

وغادرت كسلا فى الموعد المضروب من يوليو فى قافلة مؤلفة من سبعة جمال .
وكان يصحبنى ثلاثة من شرطة الهجانة ، وقد أخذت معى خيمة وسريراً سفرياً
وصندوقاً كبيراً به بعض الأدوية . وحملت أيضاً بندقيتى ومن الكتب الانجيل ،
وبعض روايات شكسبير وأشعاره ، ونسخة من « ألف ليلة وليلة » باللغة العربية
وكتاب قواعد اللغة العربية . وبلغت المسافة التى قطعتها أكثر من خمسمائة ميل
فى الاسابيع التالية لمغادرتى كسلا . وتعلمت شرب لبن النياق دافئاً عند حلبه ،
كما تعلمت كيف أستخدم يدى لتناول طعامى جالساً على الأرض بين الشيوخ وأصحاب
القطعان . وكنت أقوم ببعض الأعمال الطبية . وكانت المشاكل والمنازعات قليلة ،
ولكن القليل الذى طرأ منها كان شائكاً . كنا ننهض من منزلنا فى الفجر ونركب
جمالنا أو نسير على أقدامنا إذا كانت الجمال مرهقة مجهدة ، ولانتوقف إلا عند مغيب
الشمس أو لتناول وجبات الطعام. وكانت الزوابع الرعدية تزمجر عصر كل يوم.
وعند هطول الأمطار يصعب سيرنا بسبب التربة الطينية ، والأودية العريضة التى
يجرى فيها الماء كأنه سيل العرم . وكنا نخشى أن يلدغنا ثعبان أو عقرب، ولكن
عزاءنا كان هذه المناظر الطبيعية ذات الجمال الأخاذ حيث نمتطى جمالنا لعدة أميال
وسط الأعشاب الطويلة الكثيفة التى تزين هاماتها الخضراء زهور بيضاء . حقاً لقد
كان سهل البطانة أشد نضرة وبهجة من الريف الإنجليزى ، وكانت قطعان الإبل

* التحق مستر أكلاند بالخدمة السياسية السودانية عام ١٩٢٤م وعمل فى قوة دفاع السودان اثناء الحرب ، وتقاعد عام ١٩٤٦م . وكان يعمل فى وزارة الخارجية البريطانية فتدرج فى مناصبها حتى أصبح وكيلاً دائماً لها. اسمه سير انطونى أكلاند .

ترعى وسط هذه الأعشاب الطويلة وصغارها ترتع خلفها : وكنا نتمتع بكرم الضيافة وحلو الحديث من قوم عامرى النفوس بالثقة والشجاعة والايمان،لاتفارق الابتسامة أفواههم . ونفذت تعليمات المستر بيلى بحذافيرها، وصعدت الى جبل مندرة وتمنيت وعدت إلى كسلا فى بداية سبتمبر حيث أخطرت بنبأ نقلى مؤقتاً للعمل مفتشاً فى مركز الخرطوم .

وأذن لى أن أعود للقضارف لفترة قصيرة . أما فترة عملى فى الخرطوم فقد أكسبتنى كثيراً من الخبرات . وفى رحلة القطار من كسلا إلى القضارف استغرقت فى تفكير عميق فيما كان ينتظرنى فى الخرطوم ، واعترانى شعور بالرهبة من العمل الجديد الذى تم نقلى له . ومهما يكن من أمر فقد كان عزائى أن يرى رؤسائى فى شخصى بعد عام واحد من التحاقى بالخدمة مستوى من الكفاءة يؤهلنى لتقلد منصب ذى مسئولية كبيرة . وكنت أسائل نفسى كيف لها أن تتأقلم مع الوضع الجديد ، وترقى إلى مستوى تحمل المسئولية الجديدة فى مدينة كبيرة كالخرطوم ، مظاهر الحياة الاجتماعية فيها ذات طابع أوربي ، فى شوارعها تسير مراكب الترام ، وتتوفر فيها دور السينما، والحوانيت والمطاعم الأفرنجية ؟

وهناك فى الخرطوم خصص لى مكتب كبير ، وعمل من نوع جديد هو تقدير الضرائب على الأرباح التجارية أو إصدار الرخص للسيارات ، والرخص التجارية والرقابة على الأفلام السينمائية ، فكنت أجد نفسى مشغولا طيلة اليوم بالمكاتبات الرسمية ، وباستقبال الزوار الذين يرتادون مكتبى . ورغم زحمة العمل وكثرته كنت أخصص ساعة من وقتى كل يوم لدراسة القانون ، ومتابعة القضايا التى ينظرها قاضى الجنايات . وكان أحد اللبنانيين يشرف على تدريسى اللغة العربية ثلاث مرات كل أسبوع ، ويعطينى العرائض لأفك طلاسمها ، ويختبرنى بترجمة مايختاره من النثر .

وانتهى عملى فى آخر نوفمبر قبل موعد الامتحان . فعدت إلى القضارف مرة أخرى . وكنت سعيداً بما أنجزت من عمل فى الخرطوم دون عون من أحد . وفى يناير رجعت إلى الخرطوم مرة أخرى لأجلس للامتحان . واستطعت بتوفيق الله أن أحرز درجة النجاح فى المادتين ، اللغة العربية والقانون .

ورغم أنه تم أختيارى فى وقت لاحق للعمل فى المصلحة القضائية فقد أستهوتنى دراسة اللغة العربية كثيراً إذ كنت قد تتلمذت على يد ديو هيرست فى أكسفورد وكنت خلال السنوات التالية أنتهز كل فرصة تتاح لى لتوسيع مداركى فى هذه اللغة والارتفاع بمستواى فيها . وكنت رغم كل هذه الجهود أشعر بضآلة المامى بها لأنها بحر واسع كثير المفردات ، قواعد النحو فيها بالغة التعقيد ،وحروفها يصعب نطقها على غير أهلها . وكان على من يريد تعلمها والتبحر فيها أن يكون عظيم المثابرة والإجتهاد، والا اعتراه النسيان، وافلتت الكلمات والمعلومات منه .

الفصل الرابع
كردفان وجبال النوبة

١٩٣٣ – ١٩٣٨

قبل ذهابي فى اجازتى السنوية إلى بريطانيا تم نقلى الى مديرية كردفان،وتقرر أن أتوجه اليها عند عودتى من الاجازة . وكردفان هذه تقع على الغرب من النيل ، وتتمتع بسمعة طيبة ، وكان من المعتقدات الراسخة أن العمل بها يمهد الطريق لمستقبل باهر فى الخدمة السياسية . وأن مديرها غالباً مايتم اختياره ليصبح سكرتيراً إدارياً . وكان قد عين مديراً لها منذ وقت قريب المستر (سير) دوقلاس نيوبولد خلفاً للمستر (سير) ج. أ. قيلان . الذى تقرر تعينه سكرتيراً ادارياً خلفاً لسير هارولد ماكمايكل . وكان سير قيلان قد ولد فى عام ١٨٨٥ ، وتوفى عام ١٩٨١ ، وعمل بالسودان خلال الفترة ١٩٠٩ – ١٩٣٩ .

* * *

حضرت للسودان أول مرة عن طريق البحر الأحمر وبورتسودان ولكنى هذه المرة أخترت طريق وادى النيل . وبدأت رحلتى بالقطار من الخرطوم الى وادى حلفا فى رحلة قدرها أربع وعشرون ساعة وطولها ستمائة ميل . ويسير الخط الحديدى بمحاذاة النيل نصف المسافة ، ثم يخترق صحراء بويضة حيث محطات القطار تحمل أرقاماً أو نمراً بدلاً عن الأسماء . وكان القطار بسبب ضيق قضبانه لايستطيع السير بسرعة تزيد عن ثلاثين ميلاً فى الساعة الواحدة . وكانت الحرارة تقسو علينا بل وتزداد فى بعض الاحيان قسوتها ، ويتطاير الغبار من تحت عجلات القطار ؛ ولكن كان يخفف علينا ذلك العناء مايتوفر فى عربات النوم من راحة ومتعة ، كانت مزودة بالمراوح الكهربائية واحواض الغسيل . وكان الطعام فى القطار جيداً ؛ والوجبات لاتخلو من سمك البلطى . وكان حارس العربة دائم الحركة فى ممرها ، يحمل فى يده طلمبة الفلت يرش بها يميناً ويساراً لمكافحة الذباب والحشرات الأخرى . وكانت الصحراء بأشجارها الشوكية هى المنظر الغالب طيلة الرحلة . وكان ركاب

القطار ينزلون فى المحطات التى يتوقف فيها ثم يصعدون وهم يحملون مشترياتهم، والباعة المتجولون يعرضون بضاعتهم من بيض وخبز وفواكة .

وفى وادى حلفا نزلنا من القطار وواصلنا رحلتنا على ظهر سفينة لمدة يومين استسلمنا خلالهما للراحة ، وكانت تبحر ببطء على صفحة الماء المثقل بالطمى. وكنت ترى على جانبى الشاطىء شريطاً زراعياً ضيقاً تربض وراءه الصحراء القاحلة شرقاً إلى البحر الأحمر ، وغرباً الى الصحراء الكبرى.

وفى أسوان جنوب مصر ، ركبنا القطار مرة أخرى إلى القاهرة. واسوان هذه مدينة مصرية عريقة ، تمتاز بضجيجها وما يكتنفها من فوضى، يكثر فيها الباعة المتجولون ، والشحاذون والذباب . وبانطلاق القطار منها تتغير الطبيعة ويتسع السهل ، وتكثر المزروعات .

وبعد عشرة أيام من مغادرتى الخرطوم وصلت إلى مدينة نابلس حيث كان والدى فى انتظارى .

وعند انتهاء اجازتى رجعت الى الخرطوم ومنها الى كردفان . وكان ذلك فى صيف عام ١٩٣٣ . وكردفان هذه تختلف أختلافاً بينا عن مديرية كسلا . جنوبها أقرب الى خط الاستواء يغلب عليه الطابع الافريقى لا العربي . وهى ككسلا معبر للحجاج من غرب أفريقيا إلى مكة ، فيها يلتقى العالمان العربي والافريقى . ويبلغ طولها من الشمال الى الجنوب أربعمائة وخمسون ميلا، الجزء الشمالى منها صحراوى تكثر فيه القيزان الرملية وتقطنه قبائل الرحل من رعاة الابل ، والجزء الجنوبي جبلى ، قد يبلغ ارتفاع بعض الجبال فيه ألفين وخمسمائة قدم فوق سطح الأرض . وفى سفوحها تكثر الكهوف ، وتسكنها بعض القبائل الوثنية . أما المناطق الأخرى فيسكنها خليط من القبائل متعددة الأصول التى تتحدث أكثر من عشرين لهجة ، لكل منها عاداتها الخاصة بها . هذه هى جبال النوبة التى كانت تدار كوحدة مستقلة ، وكانت تلودى عاصمتها . وفى أعقاب العشرينات دمجت فى مديرية كردفان فصارت جزءاً منها . ويسكن الجزء الأوسط من جبال النوبة عدد من القبائل الرحل ينحدرون من أصول عربية ، ويتحدثون اللغة العربية ويعتنقون الإسلام ديناً .

وكانت الأبيض عاصمة كردفان نهاية للخط الحديدى ، وهى تحتل من المديرية موقعاً وسطاً ، بها الرئاسة ، وتعتبر مركزاً تجارياً هاماً . وتساوى مساحة كردفان مساحة ألمانيا قبل تقسيمها بعد الحرب العالمية الثانية ، أما سكانها فيبلغ عددهم مليون نسـمة .

كان نيوبولد مدير المديرية قد قرر نقلى إلى جبال النوبة ، لكنه رأى أن يستبقينى فى الأبيض لفترة شهرين اكتسب خلالها شيئاً من الخبرة اللازمة للعمل الإدارى فى تلك المنطقة ، وأتعرف على أعمال المعلمين ، والضباط البيطريين ، والزراعيين ،والاطباء ولم يكن قد توفر للسودان فى ذلك الوقت من الاخصائيين من يعهد اليهم بالاشراف على أعمال هؤلاء الفنيين ، فكان الإداريون يراقبون أعمالهم .

عروس الرمال تتألق

وكانت مدينة الأبيض تبلغ ذروة جاذبيتها فى موسم الأمطار حيث يبرد الطقس فيها . وتشتد الخضرة . وكانت رئاسة المديرية تحتل مكاتب قديمة ، مشيدة من الطين يرجع تاريخ إنشائها إلى العهد التركى المصرى فى القرن الماضى . وكانت جدرانها لم تزل تحمل آثار الرصاص الذى أطلقته عليها قوات المهدى عند حصار الأبيض فى عام ١٨٨٣ . وكانت مبانى المدينة كلها تتألف من طابق واحد . والمساكن فى الاحياء الفقيرة مشيدة من القش . وكانت طرقاتها رملية ولكنها واسعة ومستقيمة تحيط بها الأشجار . وكنت تجد على مسافة قصيرة غربها حلة فلاتة ، التى يسكنها نحو من عشرة آلاف من النيجريين ، ويصرف شؤونها رئيس لهم .

وفى عام ١٩٣٣ تم تقسيم جبال النوبة إلى منطقتين إداريتين . هما منطقة الجبال الشرقية . ومنطقة الجبال الغربية . وقد تقرر أن أعمل فى الجبال الشرقية التى كانت تساوى مساحة اسكتلندة حجماً ، ويسكنها ربع مليون شخص . وكان مقر المركز فى رشاد ، وفيها أيضاً مراكز فرعية فى دلامى وتلودى . وكان يشرف على مركز دلامى مأمور سودانى اسمه محمد عبدالرازق . أما تلودى فقد كانت تقع على مسيرة مائة وخمسين ميلا جنوباً ، ويمكن الوصول اليها بالسيارة فى يوم واحد صيفاً ، أما فى الخريف فلا سبيل اليها الا على ظهور الخيل والبغال ،وفى فترة تبلغ أسبوعاً

كاملا . وتلودى هذه كانت مقر إدارتى . ولم يكن فيها من البريطانيين غير مفتش الزراعة ، ومهندس يشرف على تشغيل محلج القطن . ولم أكن ألتقى بهما الا مرة كل أسبوعين بسبب كثرة اسفارى ومأمورياتى .

وفى العهد التركى المصرى ، تحت وطأة غارات تجار الرقيق المتواصلة ، وخوفاً من أسلحتهم الفتاكة ، هجر النوبة السهل ولجأوا الى أعالى الجبال ، يدافعون منها عن أنفسهم فى شجاعة نادرة المثال . وكانوا يختارون الأماكن الحصينة لبناء قراهم ويجيدون القتال بالسلاح الابيض . ويشيدون حول الأودية جدراناً تعوق تقدم أعدائهم من تجار الرقيق . وتعلموا الزراعة فى منحدرات الجبال وأجادو، قرب قراهم . وكانوا كثيرى الشك فى العرب والحكومة ، شديدى الخوف منها، بسبب الظلم الذى حاق بهم فى الماضى . وكانت لهم شخصيتهم المستقلة مما أثر على علاقتهم بجيرانهم العرب ، وعطل أسباب التعاون بينهم ،وأثر على الوحدة الإدارية فى المنطقة .

وفى آخر سبتمبر ، عند نهاية فترة تدريبى بالأبيض ، بدأت رحلتى نحو مركزى الجديد . ولم تكن هناك وسيلة للوصول إلى رشاد غير ظهور الدواب أو السير على الأقدام . وكان الطريق اليها يمر بالدلنج وكادوقلى وتلودى ودلامى ، وتبلغ المسافة أربعمائة ميل تقريباً . وكنت أثناء تجوالى فى مديرية كسلا قد أتقنت الركوب على ظهور الخيول والبغال . ولكن السفر بهذه الوسيلة فى شهر سبتمبر كان أمراً شاقاً خاصة الى الجنوب من خط العرض ١٢ درجة . وسرعان ما فارقنا التلال الرملية وتوغلنا فى التربة الطينية السوداء التى تتميز بها جبال النوبة . وكانت تخترقها خيران وأودية يصعب عبورها عند هطول الإمطار .

غادرت الأبيض صباح يوم ساطع الشمس . يرافقنى أثنا عشر شخصاً بينهم خادماى والسائس وأحد الحراس من رجال الشرطة . وكنا نركب أربعة خيول وثمانية بغال محملة بأمتعتنا . وطوينا الأميال الثمانين الأولى من الرحلة بسهولة ويسر . وكانت الأرض مخضرة جملية ، تزينها بعض الأشجار ومزارع الذرة التى يشرف عليها أهل القرى . وكنا نرى البط والأوز البرى يسبح فى مياه البرك المنتشرة على طول طريقنا ، وكان يغطى الفضاء فى الصباح ساتر من الضباب . ولما وصلنا قرية سنجكاية التى تقع فى منتصف الطريق بين الأبيض والدلنج هرعنا إلى الاستراحة

الحكومية لنحصل فيها على شيء من الراحة . وقد أكثرت الحكومة من تشييد هذه الاستراحات فى كردفان ، كل منها تبعد عن الأخرى مسيرة أربع ساعات . وغالباً ما كانت الاستراحة تتألف من بعض القطاطى المستديرة الشكل . وجرت العادة أن تبدأ القوافل مسيرتها فى الصباح ، وتتوقف فى إحدى الاستراحات فى منتصف النهار ، لتناول الطعام ، ثم تستأنف رحلتها لتصل إلى الاستراحة التالية قبل غروب الشمس وحلول الظلام ، حيث تحط الأحمال عن الدواب وتترك لترتع بالقرب منها .

وكان يحيط باستراحة سنجكاية الجبال من ثلاثة جوانب . ولما قربنا منها رأينا دخانا يتصاعد ، وعدداً من الرجال والحيوانات يتحركون فى فنائها ، ومجموعة من رجال الشرطة تنزل الأحمال من ظهور البغال . ووصلنا . وترجلت عن ظهر دابتى ، وهناك قابلت الكولونيل هيد بوستيد الذى كان بالنسبة لنا شخصية أسطورية . كان قائداً لسلاح الهجانة ومقره الأبيض . وفى عام ١٩٣٣ أمضى شهرى عطلته السنوية مع فريق من الرجال حاولوا تسلق قمة جبل أفرست فى الهملايا بالهند ؛ وهى أعلى قمم الجبال قاطبة . وكان لبوستيد دور بارز فى تلك المحاولة . وبعد تناول الشاى معه . صعدنا سوياً إلى قمة أحد الجبال الغربية فرأيت الأرض التى قطعناها يغطيها بساط سندسى من العشب الأخضر الغزير . وكان ذلك من جهة الشمال . أما من جهة الجنوب فقد بدت لنا على البعد سلاسل من الجبال طويلة عالية . ولاحظنا كثرة الأشجار والعشب ، وكانت الأمطار غزيرة فى ذلك الموسم حول الدلنج ؛ تزداد غزارة كلما اتجه الإنسان جنوباً .

وعدنا إلى الاستراحة وتجاذبنا أطراف الحديث ، وحدثنى عن مغامراته فى محاولة تسلق قمة أفرست . وألفيت فيه رجلاً طيب النفس مرحاً ؛ يتمتع بمقدرة فائقة على كسب الأصدقاء . واسعدتنى الظروف بأن ألتقى به مرات أخرى عديدة فى السودان والأردن والخليج وسويسرة وبريطانيا . وكان موته فى عام ١٩٨٠ خاتمة لحياة عامرة بالأحداث .

العشب يغطى هاماتنا

كانت رحلتنا بعد كادوقلى حافلة بالمتاعب . فقد تواصل هطول الأمطار على طول الطريق ، وكان العشب الغزير يغطى هاماتنا ، والذباب يزعجنا ويزعج حيواناتنا ،

لسعاته تضايقنا لدرجة يصعب احتمالها . وكان طريقنا تعترضه كثير من الخيران فنمضى وقتاً طويلا فى انزال الأحمال عن ظهور الدواب لنعبر بها الماء والطين ، ونقفل راجعين لنحضر الامتعة ونضعها على ظهور الدواب من جديد . وكان الطين الأسود برائحته الخبيثة يعلق بأجسامنا وملابسنا ، وكنا نمضى الليل فى الاستراحات التى تعج بالبعوض والعقارب والثعابين . وكان النوبة يتجمهرون حولنا كلما توقفنا أمام الاستراحات فى ساعات الليل أو النهار . وكنت أحمل معى صندوقاً مليئاً بالأدوية ، استعين به فى تضميد جروحهم ، واعطائهم حبوب معالجة الملاريا . وكان من عادتى ألا أسافر من مكان إلى آخر مالم أحمل معى العقاقير المطهرة للجروح. وترياق سم العقارب والثعابين . وكنا نوقد النار فى المساء ليطرد دخانها الباعوض عن دوابنا . وكان الهواء يحمل لنا رائحة الطعام من مساكن النوبة فى أعالى الجبال وأصواتهم وهم يتحدثون . وكانت تمر بنا الفتيات من بناتهم فيتوقفن للنظر الينا والضحك منا !

وفى تلودى بقينا أسبوعاً ثم أستأنفنا سيرنا إلى رشاد فبلغناها بعد أثنين وثلاثين يوماً من مغادرتنا للأبيض . وبعد يومين من وصولنا سقطت صريع الملاريا فأسعفنى على عبدالكريم ، حكيم الصحة ، بحقنى بالكينيا مرتين . وعلى هذا رجل خفيف الظل ودود . ولم تكن تلك بالمرة الأخيرة التى أصبت فيها بالملاريا فقد تعاقبت على ست مرات خلال أقامتى فى الجبال . ورغم شدة حذرى لم أكن أتناول عقاقير الوقاية منها بل اكتفى بالنوم تحت الناموسية ، ولبس الاحذية العالية مساء ، والقمصان ذات الأكمام الطويلة . ومع هذا كنت أوفر حظاً ممن تلونى فى إدارة تلودى ، فقد كاد المستر جون رولى الذى جاء بعدى أن يموت من الملاريا ،وأوشك خليفته المستر ريقى دنقول أن يموت من الحمى الصفراء التى أكتسحت الجبال خلال الحرب العالمية الثانية فحصدت الناس حصـــداً .

وذهبت إلى تلودى لتصريف مسئوليتى فيها بعد اسبوعين قضيتهما فى رشاد . وكان بيتى الجديد ذا طابع خاص ، إذ كان من قبل مقراً لمدير جبال النوبة ، له برنده واسعة عالية ذات درج ممتد فى الأرض ، وبه أربع حجرات كل منها مفتوحة تحيط بها البرندات . وكان به اصطبل للخيل وحظائر للخنازير ، وهو يقع على

ربوة عالية ، وكان به بعض الشجيرات لاسيما شجيرات الياسمين ، وكانت ارضيته مغطاة بالحجر والحصى . وكانت زهـــرة الياسمين العبقة تعطر الجـــو عند هطول الامطار ، ويحلو الجلوس قربها . وكان يقف حول المنزل جبل تلودى بلونه الرمادى صيفاً ، الأخضر السندسى فى موسم الأمطار . وعند فتح الطريق بعد الخريف وصلنى من الأبيض الأثاث الذى كنت أقتنيته فى القضارف ، وأضفت اليه قطعاً جديدة اشتريتها من دلالة بيع فيها مخلفات اغريقى قتلته الحمى . وكان من بينها دولاب خشبى كبير ومقعدان وكنبه .

وكان مكتبى يقع على مسيرة ربع ميل من منزلى ، وهو مكتب كبير لـــه سقف عال ، وأرضية من البلاط الأسود ، وكانت جدرانه بيضاء اللون . وكانت لى فوق المكتب مروحة من القماش ، مربوطة على حبل طويل يمتد عبر ثقب فى الجدار الى الخارج ، ويتدلى طرفه الى البرنده حيث كان يجلس أحد قدامى السجناء ليشده بيده فتتحرك المروحة وتحرك الهواء من فوقى . وكانت جدران مكتبى محلاة ببعض مخلفات المعارك التى شهدتها المنطقة منذ وقت قصير . وكانت آخر هذه تجريدة خرجت لاخضاع جبل حصين يقوده بعض شيوخ القبائل الذين رفضوا الخضوع للحكومة الجديدة . وكان من بين هذه الآثار سيف قائد الثوار وعلمه ، وبندقية قديمة ، وعدد من السكاكين والحراب . وأضفت الى هذه المجموعة التذكارية عدداً من النياشين والمداليات التى أودعها لدى أحد قدماء المحاربين من النوبة لأحفظها له . وكان صاحب هذه الأوسمة يزور مكتبى من وقت لآخر ليطمئن على مقتنياته . وكان يواجه مكتبى ثلاث صور ، احداها للملك جورج الخامس ملك بريطانيا فى ملابس البحرية ، والثانية للملك فؤاد الأول ملك مصر فى بذة عسكرية ، يحلى صدره بوسام النيل ، ويلبس على رأسه طربوشاً ، ويرفع شاربيه بحدة الى أعلى ، والثالثة لسير ريقنالد ونقت حاكم عام السودان خلال الفترة ١٨٩٩ ـ ١٩١٦ ، تغطى صدره الأوسمة والنياشين . وكان يبدو أكثرهم مهابة. وقد أتيح لى أن ألتقى به فى لندن فيما بعد فألفيته رجلا عطوفاً لطيف المعشر . كان هذا الثالوث يراقبنى طيلة ساعات العمل . وكنت تجد فى نهاية البرندة حيث يتجمع الزوار وأصحاب العرائض فى انتظار دورهم لمقابلتى ، السجن ، ومكتب الشرطة ،

والخزينة ،ومكتب الكتبة . وكان يلى المركز ميدان كبير تقام فيه الاستعراضات العسكرية ، فى نهايته مكتب البريد ونادى الموظفين ، وقشلاقات الجنود . وكانت المدينة تقع على بعد ربع ميل من المركز .

لم يكن بتلودى ماتفاخر به المدن الأخرى ، سوقها كبير تقوم على ثلاثة جوانب منه دكاكين ذات برندات يتجمع فيها النوبة ليرقبوا فى عجب بعض الترزية يحيكون القمصان والسراويل على مكينات سنجر التى يحركونها بأرجلهم . وكانت البضائع التى تعرضها الدكاكين هى السكر والشاى والأقمشة الملونة والسكسك الزاهى الألوان ، والصحون وآنية الشاى معلقة بخيوط مربوطة بأسقفها . وكان فى السوق أثنان أو ثلاثة من التجار الاغاريق ، ومثلهم من الشوام ، ولكن أغابية التجار كانوا من السودانيين النازحين من الشمال ـ الجلابة ـ وكان مستوى المعيشة عندهم منخفضاً بسبب قلة مواردهم . ويقع على الجانب الرابع من السوق المستشفى تظلله أشجار التين البرى . وقد كانت مبانى المستشفى فى الماضى مقراً للجيش المصرى . وكان من منجزاتى أن انشأت حديقة عامة صغيرة قرب السوق ، زرعت فيها بعض أشجار المهوقنى ، وأحطتها بزريبة من الشوك لحمايتها من الأغنام . وشققت فيها طرقات وانشأت مقاعد يجلس عليها روادها ، ومنصة تستخدمها الفرقة الموسيقية . وكنت تجد خلف المستشفى مساكن الأهالى البالغ عددهم ثلاثة آلاف شخص .

أصول النوبة

وكنا أيضاً نقبل على لعب البولو مرتين فى كل أسبوع خلال أشهر الشتاء ونقيم مباراة سنوية مع كادوقلى التى تقع على بعد مائة ميل من تلودى . وكان فريق البولو يضم بالإضافة إلى شخصى مفتش الزراعة . وضابط الشرطة السودانى وأربعة من رجاله ، وكاتب السوق ، ومحاسب المركز . وكانت أرض ملعبنا صلبة نقوم بتسريتها بطريقة بدائية . وكان يشهد تمارينا تلك أعداد كبيرة من النظارة يتابعونها بشغف شديد ، يزداد كلما يصطدم لاعبان أو عندما يجنح أحد الخيول فيسقط راكبه .

كانت تلودى بلداً منعزلا مما أتاح لشاب أعزب مثلى قدراً كبيراً من الاستقلال فى الإدارة ، ووقتاً كبيراً لدراسة ثقافة النوبة . وكانت هذه الثقافة قد استهوت

أعداداً كبيرة من المفتشين قبلى . واتخذوا الإقبال عليها جزءاً من أعمالهم الإدارية . وزاد من شغفى بدراسة الأصول العرقية للنوبة ما كنت ألممت به فى علم الأجناس خلال دراستى بجامعة أكسفورد . وكان مديرنا المستر دوقلاس نيوبولد يدرك القيمة الحقيقية لمثل هذه الدراسات عن التكوين الإجتماعى للنوبة، ويرى فيها عاملا مساعداً لتحسين الإدارة . وفى عام ١٩٣٨ استخدم خبيراً فى علم الأجناس ليقوم بدراسة عميقة لأصول النوبة فأسفر ذلك الجهد منه عن كتاب «تحريات فى أصول النوبة ١٩٣٨ – ١٩٤١» . الذى صدر بعد ان وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها .

كان يساعدنى فى إدارة مركز تلودى مأمور يتولى الشؤون اليومية . ويدير المركز عند غيابى . وكان فى المركز أيضاً ضابط بوليس سودانى مسئول عن قوة الشرطة المكونة من ستين رجلا من المشاة والسوارى تم تجنيدهم محلياً ، وكلهم ماعدا ثلاثة منهم أميون .

وكنت عند أقامتى فى كسلا والخرطوم قد تعرفت على الواجبات الاساسية لمفتش المركز . وبقى على أن أطبق تلك المعلومات بطريقة تناسب الظروف المحلية ومثل هذه الخبرة لاتكتسب الا بالممارسة . وكان على أن أتسم بالحذر ، وان أقلع عن التسرع والضجر . واتاح أتصالى بالعاملين معى تعلم الكثير الذى كنت أجهله . وكان اعجابى بكثير من العاملين معى كبيراً ، بحكمتهم وطيب معشرهم . وكان أحد هؤلاء الرجال شريف أفندى عثمان الذى بلغ فى الشرطة مرتبة ضابط . وعين قائماً بالأعمال فى منطقة الليرى عند تقاعده . يحكمها نيابة عن شيخ المنطقة الذى كان صبياً فى الرابعة عشرة من عمره . وكانت قبائل الليرى تنحدر من أبناء الزنوج الهاربين من الاسترقاق ، لذلك كانوا شديدى الريبة والعداء مما جعل مهمة شريف صعبة جداً . كان عمره خمسين سنه عندما التقيت به ، وهو نازح من الشمال . طويل القامة . فاقع اللون ، له لحية خفيفة تنم تقاطيع وجهه عن قوة العزم والصبر . وكان فارساً من الدرجة الأولى . حكيماً مخلصاً لعمله ، أعطى السنوات السبع الأخيرة من حياته ، للعمل فى منطقة مستعصية المشاكل . وكنت أثناء عملى فى تلودى قد قمت بزيارات لمنطقة الليرى ولشريف عثمان ، وصحبته فى رحلاتى التى كانت تستغرق يومين أو ثلاثة على ظهور الخيل . كنا نزور القرى فى الليرى ونتفقد

أحوال الناس . وقد تعلمت منه الكثير الذى كنت أجهله ، وألفيته محدثاً بارعاً ، يقص على كثيراً من القصص عن أحداث عام ١٩٢٤ عندما تمردت الحامية المصرية فى تلودى تأييداً للمتمردين فى الخرطوم ، وعن الدور الذى لعبه للحفاظ على تماسك الشرطة السودانية ، مما ترتب عليه منحه ميدالية الامبراطورية مكافأة وتقديراً . ومما يؤسف له أن أقعده المرض فى عام ١٩٣٨ عند مغادرتى لمركز تلودى . وقد قمت بزيارته فى داره بالأبيض فوجدته يرعاه أبناؤه على أحسن ماتكون الرعاية . ثم توفى بعد ذلك بوقت قصير .

وكان محمد أفندى عبدالرازق ، مأمور مركز دلامى الرجل الذى أدين له بالفضل . كانت دلامى تقع فى شمال مركز رشاد ، وكان محمد مسئولاً عن ادارتها لمفتش مركز رشاد . كانت منطقة ذات مساحة شاسعة يقطنها أكثر من خمسين ألفاً من النوبة البدائيين الشرسين . وكان صاحبنا قد نزح من دنقلا فى شمال السودان وتخرج من المدرسة الأولية ، وعمل معلماً بعض الوقت ؛ ثم تلقى تدريباً فى الإدارة لمدة عام . ولم يكن يتحدث اللغة الانجليزية .وكان يسبقنى بعدة أعوام فى الخدمة ، ولكنه يصغرنى رتبة . وكان له إلمام واسع بالنوبة ، وتأثير عميق عليهم يتمتع بابتسامة ساحرة ، ويعلو وجهه البشر ، قصير القامة ، ممتلىء الجسم ، يضع على رأسه قبعة كبيرة ، وكان عظيم الحيوية ، شديد الصبر يسير على قدميه مسافات طويلة ؛ وذلك لأن منطقته كانت موطنا لذبابة التسى تسى التى لاتعيش فيها الخيول ولا البغال . وعلى الرغم من أن دلامى كانت تبعد عن تلودى أكثر من مائة ميل فقد كنا نلتقى كثيراً خلال السنوات الأربع التى عملنا فيها هناك . وقد أدهشنى لم ألاحظ عليه الانزعاج قط طيلة احتكاكى به رغم ما كان يلاقيه من متاعب من الأهليين .كانوا كثيراً مايرفضون دفع الضريبة ، وكانت تكثر عندهم جرائم القتل والنهب . وكان محمد مسلماً متشدداً . ولابد أن منظر النوبة العراة كان يزعجه . وكان عظيم الاحترام لرؤسائه . وذات مرة دعانى لتناول الشاى فى منزله وكان الوقت خريفاً . وكنت أقيم فى أستراحة دلامى . وجاءنى فى الساعة الرابعة وهو يحمل شمسية كبيرة خضراء اللون ، وكانت الأمطار تهطل بغزارة فى تلك الساعة ، وكانت الشمسية كبيرة تكفى لوقايتنا معاً من المطر . وبينما كنا نعبر ميداناً يستخدمه رجال

الشرطة لتمريناتهم اشتعلت السماء بالبرق ، وزمجرت بالرعد فى صوت يصم الآذان وسألته على سبيل المزاح أثناء زمجرة الرعد ان كان من الممكن للصواعق أن تضرب قمة شمسيتنا ونحن تحتها فتغيرت أسارير وجهه ، واختفت ابتسامته المعهودة ، وقال ان ذلك ليس بعيد الاحتمال . ثم أمسك بالشمسية بكلتا يديه وقذف بها بعيداً حيث سقطت على الطين وعصفت بها الرياح . ولم تجد احتجاجاتى عليه شيئاً . وأسرعنا نحو المنزل والأمطار تنهمر كأفواه القرب على رؤوسنا . ثم قام خادمه فيما بعد باستعادة الشمسية حيث وضعت فى الدولاب مع أوامر مشددة منه بألا تستعمل أثناء الزوابع الرعدية .

وكان فارساً يجيد ركوب الخيل ولكنه أقلع عن لعب البولو بعد حادث عنيف تعرض له ، اذ سقط عن جواده على رأسه ، وتحطمت خوذته ، ولكنه لحسن حظه نجا من الموت . وكان فى تعامله مع النوبة شجاع الرأى ، قوى الشخصية ، صبوراً . ومما يؤسف له أنه مات فى سن مبكرة .

وكان كثير من كبار الموظفين البريطانيين خلال الثلاثينيات يعترضون على ترقية السودانيين لدرجة فوق درجة المأمور . وكان مستقبل الإدارة يكمن فى تطوير الحكم المحلى فى الأرياف على النمط التقليدى ، وفى المدن على النمط الغربي وكانت مسئولية الموظفين السودانيين قاصرة على الأعمال التنفيذية فى المجالس . وكانت حجتهم التى يسوقونها لمعارضة ترقية السودانيين هى ما يصفونهم به من ضعف أمام ضغوط أهلهم مما يجعل تحقيق العدالة على أيديهم أمراً عسيراً ، على نقيض المفتش الانجليزى الذى لا تربطه بالأهليين صلة القربي . ومما يؤسف له أن سادت هذه النظرة وأخرت ترقية الموظفين السودانيين ، وكان لولاها — من الميسور تسليمهم الإدارة فى أقل من عشرين سنة . وكان عدد قليل منهم فى ذلك الوقت قد بلغ درجة مفتش المركز ، وكان عدد الإداريين المدربين من ذوى الخبرة قليلا بالنسبة لمايحتاج اليه العمل ، وكانت ترقية السودانيين تسير ببطء شديد ، ويكفى دليلا على ذلك أن محمد عبدالرازق وعدداً قليلا من زملائه بلغوا فى عام ١٩٣٩ الدرجة التى كنت بدأت بها عملى فى عام ١٩٣٣ ، وهم يقومون بنفس العمل الذى كنت أقوم به فى ذلك الوقت . حقاً لقد كانت الحكومة فى الخرطوم بطيئة فى

اعترافها بسودنة الخدمة السياسية . على الرغم من أن مسئولية الحكم مستقبلا تقع على كاهل الطبقة المثقفة لا على الزعماء القبليين الذين كان يلزم أن يكون دورهم هامشياً . ومع هذا فقد كانت حكومة السودان أكثر حكومات المستعمرات البريطانية تقدماً فى فهمها لمسألة مستقبل الحكم . وكان المآمير فى العشرينات والثلاثينات يتلقون تدريباً جيداً فى مدرسة الإدارة بأم درمان مما مكنهم من تحمل المسئولية كاملة أثناء غياب رؤسائهم المفتشين الانجليز فى الإجازة السنوية مما أكسبهم مزيداً من الخبرات .

وكان من بين من تعلمت منهم سبل أداء الأعمال الوظيفية الشيخ راضى كمبال ، شيخ أولاد حامد ، وهى قبيلة عربية صغيرة ترعى الإبل ، وتترحل طلباً للكلأ على طول الجانب الشرقى لجبال النوبة . كان الشيخ راضى أرستقراطياً محافظاً ودوداً انتزع احترام قبيلته . وكان يلف طرفاً من عمامته حول عنقه وذقنه حتى لاترى من وجهه سوى شاربه الرمادى اللون ، وأنفه الذى يشبه منقار الصقر ، وعينيه اللتين تشعان ذكاء . وكان قد تعاقب على المنطقة فى عهده عدد من المفتشين الشبان فأنشأ معهم الصلات الحميدة . وقد ساعدنا ذلك منه على ترسيخ سلطاتنا فى تلك المنطقة خاصة فى سنى الحرب العالمية الثانية . غير أن هذه العلاقات الشخصية اعتراها بالتدرج كثير من الفتور بسبب تنامى الحركة الوطنية . حقاً لقد كان الشيخ راضى يمثل الوجه المشرق للإدارة الأهلية القائمة على السلطة التقليدية .

كانت رسالتنا الأساسية حفظ السلام واشاعة العدل ، والارتقاء بمستوى الحكم المحلى ، وتحسين وتنويع الانتاج الزراعى ، وتوسيع نطاق الخدمات الصحية والتعليمية وتحسين وسائل المواصلات . وكنا نسعى لبلوغ هذه الاهداف بتوفير أسباب التعاون مع شيوخ ورؤساء الإدارات الأهليه والأعيان ، ولم يكن لدينا سبيل غير هذا . اذ كانت الاعتمادات المالية المخصصة لنا قليلة لاتفى وحدها بالغرض .

الفصل الخامس
الادارة : مسئوليتها ومشاكلها

وكان النوبة خلال السنوات العشرين الأولى من هذا القرن يشكلون تحدياً عسكرياً عنيفاً . وكان شغل الإدارة الشاغل هو منع الحروب والاصطدامات والتحرشات بينهم وبين جيرانهم من العرب الذين يسكنون السهول . وكان الماضى بكوارثه ومظالمه ومآسيه لم يزل ماثلا فى أذهانهم ، ولم يكن تغيير الحكومة ليقنعهم بأن الأحوال قد تبدلت . لهذا كانت جبال النوبة تدار إدارة مباشرة ، لا عن طريق الأدارات الأهلية . وكانت السلطة لدى قبائلهم تترك لدى شخصين « الملك » وهو رئيس علمانى له مجلس من كبار الأهلين ، « والكجور » وهو زعيم دينى له قدرات خارقة للطبيعة ، منها السيطرة على الأمطار والجراد . وكان ضرورياً وهاماً فى المراحل الأولى لارساء قواعد الحكم أن نؤكد الاهمية الحقيقية لكل من هذين القائدين التقليديين ، كل فى مجال اختصاصه ونفوذه ، لنستعين بهما فى نشر أسباب الأمن ، وتحقيق الرفاهية للمواطنين . وكان على الإدارة أيضاً أن تبحث عن صيغة مناسبة لتجميع الوحدات القبلية الصغيرة ، أما بصهرها أو — اذا تعذر هذا — بخلق صيغة بسيطة من الاتحاد الفدرالى بينها ، وذلك أولاً بأنشاء محاكم موحدة ، ثم بخلق وحدات إدارية لها . وبهذه السياسة ضعفت المشكلة العسكرية فى نهاية العشرينات ، وأمكن تحقيق تقدم ملحوظ فى انشاء المحاكم ووحدات الحكومة المحلية ولكن فى بطء شديد ، وذلك بأقناعهم بأنه لاسبيل لهم لتصريف أمورهم القضائية والإدارية بأنفسهم الا بالتعاون الوثيق مع جيرانهم .

كان من أهم واجبات الإدارة فيما اسلفت حفظ السلام ومنع الاصطدامات القبلية خاصة بين النوبة فى الجبال والبقارة من القبائل العربية التى تسكن السهول . وكان النوبة قد حصلوا على كميات كبيرة من الأسلحة خلال الفوضى التى أعقبت الحكم التركى المصرى فى السودان . وبينما كان أمتلاك السلاح النارى فى بقية السودان يخضع للحصول على تراخيص به ، فقد سمح للنوبة بأن يحملوه

دون اذن . وبسبب هذا الموقف كان فى جبال النوبة من الأسلحة مايقرب من عشرين ألف بندقية من طراز رمنقتون ، كلها من مخلفات الجيش التركى الذى كان قد منى قبل خمسين عاماً بهزائم متتالية ولكن الحصول على الذخيرة كان أمراً صعباً ، غير أن النوبة استطاعوا التغلب على هذه المشكلة بصنع نوع من البارود البدائى والطلقات البدائية ، وكانوا يعيدون تعبئة الطلقات عدة مرات ، وكنت أجد نفسى مضطراً فى بعض الاحيان للخروج على رأس مجموعة من الشرطة وبعض الشيوخ وحضهم على القاء القبض على المتمردين من المجرمين الخارجين على طاعة المحاكم المحلية، نسير ليلا ونتسلق الجبال فى جنح الظلام لنحاصر المنازل التى يقيم فيها المتمردون فنفاجئهم ونعتقلهم فى هدوء . وكثيراً ما كانت تنجح هذه الخطة منا ، غير أن أحد المتمردين قاومنا ذات مرة فى جبال المورو بعنف قبل أن نتمكن من القاء القبض عليه . وبعد أن أخذناه أسيراً هب بعض أصدقائه وأهله لنجدته ، وأحاطوا بنا وطلبوا منا أن نخلى سبيله . ولما رفضنا منعونا من التحرك ، وكان هذا قبل الفجر بوقت قصير . واستمرت المفاوضات بيننا لساعات طويلة دون أن نتوصل إلى نتيجة . وكان القرويون مسلحين بالبنادق ، وكنا مسلحين مثلهم . وبعثنا إلى شيوخ القرى المجاورة نوعز لهم أن يتدخلوا لفض النزاع . واستمرت المحادثات حتى منتصف النهار . وقد أصررت على تقديم الرجل للمحاكمة ولكنى التزمت بأن يكون الحكم عليه خفيفاً . . واخيراً سادت الحكمة فأقتدنا أسيرنا وعدنا به مكبلا بالحديد . وقدمناه للمحاكمة فقضت المحكمة عليه بالسجن ثلاثة أشهر عاد بعدها الى أهله .

وفى مرة أخرى أفلت أحد المتمردين من القبض ، وأطلق ساقيه للريح وكان عارياً كما ولدته أمه ، خفيف الحركة ، رياضى الجسم ، عليه رسومات تزين جسمه على عادة أهل تلك المنطقة . وطاردناه ، وكان يقود الفرقة رجل شرطة حديث عهد بالعمل . وكانت المطاردة مثيرة لاتخلو من الفكاهة . . يراقبها من على رؤس الجبال ، بعض أصدقاء الرجل وهم يطلقون نداءات التشجيع له ويودون له أن يفلت منا أما الكثرة منهم فقد دفعهم الفضول للمراقبة . وعلى الرغم من جو الفكاهة فقد كان من الممكن أن ينفجر الموقف ؛ وتترتب عليه بعض أعمال العنف . واخيراً

تم القاء القبض على المتمرد ، وصدر عليه الحكم بالسجن . ولاشك عندى فى ان الرجل كان راضياً عن نفسه وهو يرى ممثلى الحكومة يلهثون وراءه من جبل الى آخر .

تصريف العدالة

وكان واجبنا أيضاً مراجعة الاحكام التى تصدرها المحاكم المحلية ، والوثوق من مطابقتها لقواعد العدالة ، والنظر فى القضايا التى تقع خارج اختصاص هذه المحاكم . وكانت مرحلة التحقيق القضائى ضرورية لتحديد التهم أو تبرئة المتهمين . وكانت هذه التحريات تزودنا بكثير من الحقائق عن حياة هؤلاء الناس . وكان كثير من هذه القضايا يحال الى المحاكم الأهلية التى تطبق القوانين والأعراف القبلية ، وفى المدن تحال الى محاكم يرأسها قضاة محليون يطبقون قانون العقوبات وقانون الاجراءات الجنائية . أما مفتش المركز ومساعده فقد كانت تحال لهم القضايا الكبرى كقضايا القتل أو الشروع فى القتل أو الأذى الجسيم والنهب والاحتيال . وكنا فى مثل هذه الأحوال نترأس هيئة المحكمة ، كبرى كانت أو صغرى . وكان يجلس مع المفتش فى المحكمة عضوان سودانيان لمساعدته فى الاستماع الى البينات والتوصل الى حكم عادل . وكان المتهمون فى قضايا القتل لاينكرون جرمهم . وكانت سلطات المحاكم العليا تبلغ حد الحكم بالإعدام الذى يصدق عليه الحاكم العام بتوصية من رئيس القضاة . وقد ترأست عدداً غير قليل من مثل هذه المحاكم. وكان كتاب العلامة يميز « القانون الجنائى فى الهند » ذا عون عظيم لى فى كل أعمالى القضائية ، خاصة فيما يتعلق بتلخيص البينات . وقد كانت فى حقيقة الأمر قوانين مستقاة من النظام الهندى .

لم يكن السودانيون قساة القلوب ولاممن يميلون للانتقام ، ولكن ظروف الحياة قد تدفعهم أحيانا الى ارتكاب أعمال عنف فجأة . وكانت هناك أسباب كثيرة تؤدى الى جرائم القتل ، منها مغامرات الحب ، أو عدم أخلاص الزوجة لزوجها ، أو النزاع حول ملكية الأرض ، أو تخريب الحيوانات للمحاصيل . وكان أى واحد من هذه الأسباب كافياً لاشعال حرب قبلية تقتل أو تجرح فيها أعداد كثيرة من الناس . وكانت تكثر فى كردفان كغيرها من مناطق السودان الأخرى المنازعات

التقليدية بين المزارعين والرعاة حيث تشكل الماشية خطراً داهماً على المزروعات، وتقود الى كثير من أعمال العنف والجرائم . وذلك حين تقتحم الحيوانات المزارع بمساعدة من يرعاها أو بدون مساعدته ، وتتسبب فى اتلاف المحاصيل مما يدفع المزارع فى ثورة الغضب لاحتجازها أو قتلها . ثم يظهر الراعى فى مسرح الأحداث فتقع الواقعة وتنشب معركة يشترك فيها أنصار كل فريق مما يسفر عن كثير من القتلى والجرحى فى نهاية المطاف .

وكانت النظم القضائية تسمح بالدية سبيلا للتسوية فى حالة ارتكاب جريمة القتل ، وذلك بأن تصدر المحكمة حكمها وفق منطوق القانون، وتردفه بتوصية منها بتخفيفه متى تم التراضى بين المتخاصمين على الدية ، وبهذا تأخذ الحكومة حقها بغرض حكم السجن على من تم أدانته ، وتكون الدية حقاً لاهل القتيل .

كان كل شيخ من النوبة أو العرب مسئولاً عن إدارة منطقة قبلية محددة . وكان لكل منهم وحدة إدارية خاصة به ، ومحكمة وقوة صغيرة من الشرطة . وكان هؤلاء الشيوخ يتباهون بسلطتهم ، ويجعلون مظهرها ما يلبس أعوانهم وخفراؤهم من ملابس مزركشة وفق ماتأذن به ميزانيتهم ومواردهم المالية . وكنا نساعدهم بمدهم ببعض الملابس والأحذية والصنادل . وكنت أمد الرؤساء والشيوخ منهم بجبب وعمامات ذات ألوان زاهية . وكان عليهم أن يحصلوا على الأسلحة بطريقتهم الخاصة ، وهى غالباً ماتكون أسلحة زينة لاتصلح للاستعمال . وكنا نعقد لهم دورة تدريبية مرة كل عام فى تلودى . وكان من مسئوليتى أيضاً جباية الضرائب ، وهى ضرائب سنوية بسيطة . كنت أقوم بحصر الرجال القادرين على دفع الضريبة ، والماشية وكميات المحصول المتوقع عند الحصاد فى منطقة كل قبيلة ، وأبنى على ذلك تقديراً اجماليا لما ينبغى أن تدفعه القبيلة من ضرائب . وكان على شيخ القبيلة توزيع الضريبة المقررة على عدد من العائلات فى منطقته ، وغالباً مايكون ماتدفعه العائلة الواحدة ثلاثين أو أربعين قرشاً . وكنت أقدم للشيوخ الذين يسارعون بتحصيل الضرائب وسدادها مكافآت من قطيع الخنازير الذى أملكه . وكان الشيخ فى مثل هذه الحالة يولم أهله فى حفل صاخب .

وكان من واجبى أيضا صيانة الطرق والكبارى والاستراحات والشفخانات

والمدارس ، إذ لم يكن لمصلحة الأشغال وجود فى المركز : وكنا نفرض على الناس قدراً من العمل الجماعى يقومون به مرة كل سنة . وفى نهاية الخريف كنا نفتح الطرق ، ونستخدم السخرة فى صيانتها ، كل قرية تقوم باصلاح جزء منها وفق مايتوفر لها من الرجال الاقوياء . وكانت الصيانة السنوية لمبانى القش ضرباً آخر من ضروب العمل الجماعى . وكانت الميزانية المخصصة لصيانة الطرق والمبانى قليلة جداً لاتسمح لنا بدفع أجور للعمال ، لهذا كنا نشترى بها عجولا وأغناما لنطعمهم بها أثناء العمل . وكان مطلوباً من كل رجل أن يعمل خمسة أيام أو ستة فى العام وأن يحصل مقابل ذلك على وجبة أو وجبتين . ولم نجد مشقة فى تنفيذ العمل المنشود عن طريق السخرة . وكان يكفى أن نرسل واحداً من شرطة السوارى على حصانه ومعه أحد رجال القرية لتصريف العمل بمساعدة شيخ القبيلة فى رقعة طولها عشرون ميلاً . وكانوا ينظمون فرق العمل ممن يستنفرهم الشيخ بدقة شديدة رغم مشقته . كان عليهم أن يقطعوا الأعشاب ، وان يدفنوا الحفر والفتحات وان يشقوا المجارى . وينظفوا الكبارى ويقووها وأن يقبلوا على عملهم فى همة ونشاط ، وهم ينشدون الاغانى ،لاسيما قبيل الغروب حين يأتى النساء وعلى رؤوسهن الجرار مليئة «بالريسة».

لم يكن فى منطقة الجبال الشرقية غير مستشفى واحد هو مستشفى تلودى . وكانت هناك ست شفخانات فى مناطق أخرى ، ويعزى هذا الضعف فى الخدمات الطبية الى فقر السودان وقلة الاعتمادات والمخصصات المالية . واجتاح جبال النوبة فى عامى ١٩٣٤ — ١٩٣٥ الالتهاب السحائى بصورة وبائية ؛ وكان يتهددها بالفناء . وقد مات بالفعل أعداد كبيرة معظمهم من الشباب . ولم يكن فى وسعنا أن نفعل شيئا غير أن ننصح للناس بتجنب الزحام وبالنوم فى العراء ليلاً بدلاً عن النوم فى أكواخهم الضيقة ، وحتى ذلك لم يكن ميسوراً بسبب برودة الطقس . واقتضت هذه الحال منى أن أمضى وقتاً طويلاً فى التنقل من قرية إلى أخرى لأحدث الشيوخ والجماعات عن طريقة انتقال هذا المرض الخبيث وانتشاره . ولم يكن لدينا أية وسائل طبية لمعالجته أو اتخاذ الوقاية ضده . وكان هذا الوباء قد قدم الينا من دارفور فى الغرب ، وظل يحصد ضحاياه موسمين متتاليين من الشتاء . ثم توقف . . غير أنه داهمنا بعد عامين آخرين مرض الحمى الصفراء . وكان مرض الجزام شديد

الانتشار فى الجبال فأقمنا مستعمرتين للمجزومين ؛ ولم يكن لدينا فى ذلك الوقت علاج لهذا الداء .

وفى جبال النوبة مناطق لم يكن قد تم مسحها قبل نقلى للعمل هناك ، فكنت أثناء تجوالى أقوم بهذا العمل باستخدام بوصلة ، وأرسم الطرق ، وأوضح المعالم الرئيسية واسماء الأماكن وأكتب تقارير عن الطرق التى نسلكها ، وأرسل بهذا عن طريق رئاسة المديرية إلى مصلحة المساحة حيث يتم تحقيقه وتسجيله فى الخرائط الرسمية ذات المستوى الرفيع التى كانت تصدرها هذه المصلحة وترسل بها الى المراكز. وكانت هذه الخرط تخضع لمراجعة دقيقة كل خمس سنوات وتضاف اليها المعلومات الجديدة . وكان رصد هذه المناطق النائية وتسجيل المعلومات التفصيلية عنها ، مما أفخر به وأعتز .

وفى جبال النوبة يبرد الطقس فى شهرى ديسمبر ويناير ، وتكون الرياح شمالية ويكثر اندلاع النيران فى الأعشاب الناشفة ،وتبدو فى الليل كوهج شرير عند الأفق وكأعمدة سوداء من الدخان تعبث به الرياح نهاراً ، وتنبعث منه رائحة كريهة تستمر عدة أيام ،وينكشف هذا كله عن تربة حالكة السواد . ولما تبلغ النيران أشدها ترى الطيور تحلق فى الجو فى انتظار فرائسها من الأرانب والفئران وغيرها مماتكون النار قد حاصرته . وهذه النيران يشعلها غالباً الصيادون ،ويقفون على أهبة الاستعداد فى الاتجاه المعاكس للهواء للانقضاض على الغزلان والانواع الأخرى من الصيد . وكانت الحشائش الخضراء تنمو من جديد بعد أيام قليلة على أنطفاء النيران . وعلى الرغم من أن هذه النيران تفيد بعض الناس فانها دون شك تتسبب فى خسائر كبيرة اذ تقضى على المرعى وتؤدى الى تعرية التربة وتآكلها ، لهذا كانت القوانين القبلية تعاقب من يشعلها .

أسفار متصلة

كان السفر المتصل هو وسيلتنا الوحيدة لتصريف مسئولياتنا ولمتابعة تنفيذ مانصدره من أوامر وتوجيهات . ولم تكن أسفارنا قاصرة على فصل الجفاف حيث يمكن السفر بالعربات أو على الأرجل فى الجبال ، بل كنا نسافر أيضاً فى فصل

الأمطار رغم مايحيط به فى مثل هذا الوقت من أخطار . ولعل عزاءنا كان مانستمتع به من جمال الطبيعة وروعتها بعد هطول الأمطار . كانت السحب تتراكم وتتكاثف منذ منتصف النهار ، ثم تنفجر عن أمطار غزيرة قبل الغروب . وكنا نبدأ سفرنا قبل شروق الشمس حين يكون الطقس بارداً ورطباً ، والأرض خضراء تنبعث منها رائحة زكية . وكنا نرى فى الطريق شلالات صغيرة ينحدر منها المياه فى قوة الى الأودية وغلالات من الضباب على رؤوس الجبال . وتضايقنا الرطوبة وتثقل علينا فنضطر للتوقف عن السير فى الساعة التاسعة لتناول وجبة الافطار . وكنا نسرع الخطى أبداً لندرك بإحدى الاستراحات قبل وقوع الزوابع الرعدية عصراً ، اذ كانت عنيفة مجنونة . وكانت الأمطار تنزل بعنف على سفوح الجبال ، ويزمجر الرعد حول القمم فنستلقى على أسرتنا تحت الناموسيات فى الاستراحات لنصيب شيئاً من الراحة والنوم . أما إذا كان سقف الاستراحة ضعيفاً أو كانت به ثقوب يدخل منها الماء فكنا نمضى ليلة تعسة . ولتصوير مدى المعاناة والنصب الذى كنا نواجهه فى فصل الأمطار اقتطف فقرة من خطاب كتبته لوالدى فى يونيو من عام ١٩٣٧ :

« وصلت الى رشاد فى منتصف نهار الأمس بعد ان أمضيت الليلة السابقة فى أحد معسكرات أولاد حميد . حيث كانت عربة المركز فى انتظارنا فركبناها وتركنا الخيول والبغال لتدرك بنا . وظللنا لفترة ساعتين متتاليتين نحرث طريقنا حرثاً ، وببطء عبر وحل عميق . وكانت الأمطار لم تزل تهطل بغزارة . وكنت أقوم بقيادة العربة ، يجلس بجانبى شيخ مريض كنت أحاول اسعافه بنقله الى المستشفى وكان فى حالة ضعف شديد ، لم يلبث أن سقط ميتاً على كتفى . وكان يركب فى خلف العربة سائقها وطباخى ، ومساعده ، وكبير خدمى ، وجندى من الهجانة وتلميذات ، وزوجة الشيخ ، واحد المجانين المكبلين بالحديد يبكى ويضرب رأسه على أرضية العربة . وذات مرة أفلت منا عند وقوف السيارة فى الطريق ولاذ بالفرار داخل الاحراش فلم نعثر له على أثر » .

وكان التجوال بالأرجل فى الجبال عند الجفاف أكثر متعة . كان سكان القرى الجبلية شديدى الخجل والحياء ، وهم أكثر تخلفاً وبدائية من غيرهم ، وذلك لانهم كآبائهم وأجدادهم من قبلهم لم يكونوا ينزلون من جبالهم خوفاً من غارات

راكبى الخيل . كانت بيوتهم المشيدة بالحجر والمسقوفة بالقش تبدو كأعشاش الطيور معلقة على رفوف فى سفوح الجبال ، أو تكون ملتفة حول بئر أو مجرى ماء . وكان لكل أربعة أكواخ منها فناء واحد له مدخل صغير ، وكانت كل مجموعة تشكل قلعة حصينة يصعب اختراقها . وجدران الاكواخ تبيض من الداخل بالرمل وتزين من الخارج برسومات وأشكال هندسية . وكنت تجد فى حجرات نومهم أعداداً كبيرة من الرماح والمدى وربما الاسلحة النارية . وكانت المنازل نظيفة والعناية بمحتوياتها عظيمة .

والطرق فى الجبال ضيقة ومتعرجة . وكان لابد لنا من حمالين لنقل مانحتاج اليه من فراش ومعدات أكل ومقاعد وغيرها . وكانت النساء تتطوعن لحمل حاجاتنا إذ كانت لهن دراية بتسلق الجبال . وكان الرجال لايخجلون أن يعلنوا وهم يضحكون عن عجزهم عن أداء ذلك العمل الذى يعتبرونه شاقاً . لهذا كنت ترى صفاً من النساء والفتيات يتقدمن ببطء عبر المسالك الجبلية الضيقة الوعرة . كل منهن تحمل على رأسها حملا ، وتمسك عصاً بيدها تحفظ بها توازنها . وهن لايتوقفن عن الثرثرة ، تفوح من أجسادهن رائحة زيت كريهة . وكنا ندفع لهن أجرهن ونزيدها شيئاً من السكسك الزاهى الألوان أو من ملح الطعام .

ولم يكن النوبة يشعرون بشىء من الحرج وهم يسيرون عراة الاجسام كما ولدتهم أمهاتهم الا عند ذهابهم الى تلودى ، حيث كانوا يغطون عوراتهم احتراماً للتقاليد الحضارية . وخوفاً من نقد العرب لهم . وكان يفعل هذا الرجال منهم دون النساء . أما الفتيات فكن يذهبن عراة الا من عقد من السكسك يزين رقابهن . وكان النساء كبيرات السن يلبسن نوعاً من الجلود أو يغطين نحورهن بورق الشجر ، وكلهن يزين أجسامهن بنقوش ورسوم . وكان الفتيات حديثات العهد بالزواج يتعرضن لنوع قاس من الفصادة أثناء حملهن بمولودهن الأول . وكانت هذه الجراح تنكشف عن أشكال مختلفة فى الصدر والبطن والظهر . وكانت الشفة السفلى منهن تثقب ليتدلى منها ظرف رصاصة فارغ كما كانت تثقب أيضاً الأذنان لتتدلى منها حلقات نحاسية . وكان من عاداتهم أن يخلعوا السن الوسطى فى الفك عند البلوغ لكل من المولود الولد والبنت . وكان الصبيان يثقبون أنفوهم

ليربطوا عليها أنياب حيوان أو أسنان فأر، وكان كثير منهم يغطون شعرهم بالجبنة البيضاء، ينظمونها فى أشكال مختلفة، ويستعملون الزيت والرماد والتراب لمسح أجسامهم. ولم يكن الخفاض ولاالختان معروفاً لديهم. ولكن بعضهم ممن عملوا فى الجيش أو الشرطة كانوا يمارسونه فأخذ ينتشر قليلاً قليلاً.

وكان من العادات الحسنة فى شمال السودان المسلم أن يترك المرء لوحده عندما يريد الاستحمام أو تغيير ملابسه الداخلية فلا يتطفل أحد بالدخول عليه. أما فى جبال النوبة فقد كنت أرى أعداداً كبيرة من الرؤوس تطل على من ثنايا القش فى الاستراحة وانا أتربع عاريا داخل حمامى، وتزداد همساتهم حين أقف عارياً لأجفف جسدى.

كنت عند زيارتى للقرى أصرف مسئولياتى بسرعة، أبحث القضايا القانونية وجباية الضرائب المستحقة. والمحاصيل. ومصادر المياه. حتى اذا ما فرغت من عملى أستمتع بفراغى فى العصر والمساء بالتجول فى الشوارع، أو الصعود الى قمة جبل قريب، أو التحدث مع بعض المارة. وذات مرة كنت أجلس وحيداً على سفح جبل بالقرب من نقطة الشرطة فى هيبان التى تقع على بعد سبعين أو ثمانين ميلا شمال تلودى، وكان بالنقطة سجن صغير، وقوة من الشرطة قوامها ستة رجال. واستراحة وقطية صغيرة من القش أستخدمها مكتباً عند زيارتى. وبينما كنت أدخن غيلونى وأستمتع بجمال المنظر تقدم منى رجل عجوز وحيانى بود شديد، وبلغة عربية خشنة، وابتسامة عريضة. ثم جلس بجانبى. وكان عارياً تماماً يضع على عنقه عقداً من السكسك، وأخرج غيلونة المصنوع من الطين ونظفه. ونظر اليه ثم نظر الى فأدركت مايريد، ودفعت إليه بما لدى من تبغ فاخر، فملأ غيلونه واستمتع بنكهة ذلك التبغ وعلى وجهه ابتسامة شكر وعرفان، ثم أخذ يسمر معى فحدثنى أنه جندى قديم عمل فى الجيش المصرى. وكان خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) فى قنال السويس عضواً فى فرقة موسيقية. ثم أخذ يغنى أحدى أغانيه فى استحياء. واعترانى شيء من الارتباك، إذ كانت النغمة غريبة، وظننته فى بادىء الأمر يغنى باللغة الانجليزية حتى استبنت فجأة أنها كانت أغنية « أحبك يافتاتى » التى

تعلمتها الفرقة عام ١٩١٦ . وأخذ منى العجب كل مأخذ وتسآلت ماذا يفيد مثل هذا الرجل أن يغنى أغنية كهذه ؟

حياة رتيبة

كانت حياتى رتيبة لاتتغير ، قبل طلوع الفجر يحضر لى خادمى قدحاً من الشاى ، وفى السادسة والنصف صباحاً أرتدى ملابسى ويحضر السايسان خيولى الثلاثة ويقفان فى انتظارى خارج البرندة . وكنت أحمل معى دائماً قليلا من التمر أطعمه للخيول عند نهاية الجولة مكافأة لها . كنا نركب الخيل على سفح الجبل حيث تكثر أشجار القطن التى زرعها من سبقونى للعمل فى هذه المنطقة قبل عشر أو خمس سنوات ، وكانت عالية يبلغ ارتفاعها نحواً من ثلاثين قدماً . وكنا نهتم بزراعة الأشجار وريها ، ونحيطها بزرائب من الشوك وقاية لها من الأغنام . وكنت أثناء تجوالى أمر على المكتب ، وأبلغ المدينة ، وأحضر استعراض الشرطة مرة كل أسبوع ، وأزور أحياناً المزرعة التجريبية التابعة لمصلحة الزراعة أو المستشفى لأقابل دكتور أحمد عكاشة واستفسر عن صحة المرضى ، وأزور حديقة المركز حيث يقوم أثنان من المساجين بزراعة الخضروات والليمون والموز والجوافة والباباى . وكان الانتاج يوزع على العاملين بالمركز كل يوم . وكنت أرجع لمنزلى فى الساعة الثامنة لأتناول وجبة خفيفة من البيض والفاكهة واشرب قدحاً من الشاى ، ثم أذهب الى مكتبى لأبقى فيه الى الساعة الثانية والنصف بعد الظهر . وأعود بعد ذلك لبيتى لأتناول وجبة الغداء التى غالباً ما كانت تتألف من لحم بارد وسلطة وفنجان من القهوة التركية . وكان حجرات منزلى تظل مغلقة طيلة النهار لكى لاتتسرب اليها حرارة الشمس . وكان من عادتى أن أقبل على القراءة بعد الغداء حتى الساعة الرابعة والنصف حيث أخرج لممارسة رياضة المشى أو ركوب الخيل حتى مغيب الشمس . وكنت قد حاولت أن أنام بعد الغداء على نحو مايفعل كثير من الناس ولكن هذه العادة لم تتمكن منى . وكنت أرجع الى مكتبى فى الساعة السابعة مساء وأبقى فيه تسعين دقيقة أعد خلالها حيثيات القضايا الجنائية ، أو أكتب المذكرات القبلية ، أو التقارير لأن وقتى بالمكتب أثناء ساعات النهار لم يكن يتسع لهذا العمل اذ كنت أمضيه فى مقابلة الناس . وكان من عادتى أيضا أن أدعو موظفى المركز وبعض الأعيان من التجار لتناول الشاى معى

فى منزلى ، كما كنت أحياناً أستضيف بعض الزوار يوماً أو يومين أو أوجه الدعوة لمن يقيمون فى الاستراحة لتناول العشاء معى فى بيتى . وكان الواحد منهم يأتى مسلحاً ببطارية تنير له الطريق وعصا يقتل بها الثعابين .

كانت طبيعة العمل تتطلب منا أن نقضى خمسة عشر يوماً من كل شهر فى رحلات ميدانية . وكان نمط حياتى وبرنامجى اليومى خلال هذه المأموريات لايتغير عما اعتدت عليه فى بيتى من حيث مواعيد النوم والأكل ؛ ولكنه كان من الصعب التقيد بساعات محددة للعمل . وكان عملى متصلا لاينقطع ،وأنا أتنقل من قرية الى قرية ، وأقفز من جبل الى آخر . وكنت قلما أمضى المساء وحيداً إذ كان يحضر للجلوس معى كبار أهل القرية حول نار المعسكر التى أقيمها حينما يكون البرد قارساً فى أعالى الجبال أثناء الشتاء وفى موسم الأمطار . وكنا نتناول فى مثل هذه اللقاءات أقداح الشاى، ونتجاذب أطراف الحديث . ونعود من مثل هذه الرحلات ونحن نحمل معنا مريضاً أو مريضين ممن يحتاجون الى عناية طبية بالمستشفى ؛ وكان هـذا التصرف الانسانى منا مبعث رضا لدى الأهلين يدعم من ثقتهم فى الحكومة .

وفى بداية الثلاثينات أزداد اقبالنا على تطوير جبال النوبة من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية . وكان قد أدخلت فيها منذ سنوات قليلة زراعة القطن كمحصول نقدى، وزيدت المساحات المزروعة،منه وأنشأت الحكومة محطات كثيرة فى مركز تلودى لجمع المحصول ، وتحديد درجاته وأوزانه وأثمانه . وأنشئت فى تلودى مزرعـة تجريبية لتحسين نوع البذور والخضروات بغرض توزيع البذور المحسنة على المزارعين. وفى مجال التعليم كانت هناك مدارس أولية فى المناطق الحكومية الرئيسية دعمناها بمدارس ابتدائية فى المناطق الريفية ؛ ومراكز الرئاسات القبلية .

وقد يسائل المرء نفسه عن الأسس والمقاييس اللازم اتباعها فى تصريف المسئوليات الملقاة علينا . ولاشك عندى فى أن الكياسة وحسن التصرف والادراك هى الاساس ، ثم تأتى ضرورة التحلى بقسط كبير فى المثالية المشبعة بشعور ودى صادق نحو هؤلاء القوم طيبى المعشر الذين كنا نعيش بينهم ، والذين كانوا يجمعون فيهم كثيراً من الصفات المتناقضة، كالأمانة والنفاق ، والطيش والكبرياء ، والفظاظة والرقة ، وكانوا رغم صرامتهم يتحلون بروح المرح والفكاهة .

ويمتاز النوبة بأنهم من القبائل شديدة التعلق بالتبغ . يزرعونه ويدخنونـه ويمضغونه . وكان يشكل فى كثير من الجبال جزءاً من مهور العرائس ، ويذهب جزء منه لأم العروس . وكان الرجال يدخنونه من غايوناتهم التى يصنعونها من الطين أو الحجر . أما العجائز منهم فقد كانوا يمضغونه مع شيء من الملح ويبقونه فى أفواههم وقتاً طويلا قبل أن يلفظوه . أما الفتيات والعرائس فقد كن يبتعدن عنه ، ويقلعن عن استعماله، لأنه عندهن مضر للفم؛ ذو رائحة ممقوتة . وكان الرجال منهم يعتبرون الغليون هدية ثمينة . لهذا كنت كلما عدت من اجازتى فى بريطانيا حملت معى دستتين أو ثلاث دستات لاقدمها هدايا للشيوخ وكبار النوبة . وكنت أقدم لهم أيضا أمشاطاً ملونة ، يعلقونها على رقابهم ويمشطون بها من وقت لاخر ذقونهم إذ لم يكن شعر رؤسهم يحتاج الى تمشيط . وكانوا شديدى التعلق بكثير من ضروب الرياضـة ، كالمصارعة ورمى الرمح ، والمبارزة بالعصى والدروع . وكانوايشتركون فى سباق الجرى ، وكان بعض المتصارعين منهم يلبسون أساور حادة حول المعصم وكانت هذه من أشد الألعاب خطراً، وقد شهدت فيها ذات مرة واحداً منهم يقتل زميله .

يتميز النوبة بحس فكاهى عظيم ، أقل الأشياء يفرحهم بسبب بساطتهم. وأذكر بهذه المناسبة أنه كان لى لعبتان فى شكل فأرين يتحركان بجنزير اخذهما معى فى رحلاتى حيث أغافل النوبة وأطلقهما وسطهم فيصيبهم الذعر والخوف والارتباك ، حتى اذا ما أدركوا حقيقتهما أغرقوا فى الضحك . وذات مرة من المرات ردوا لى الصاع صاعين . . عندماكنت أجلس بين مجموعة من كبارهم أتحدث اليهم ففاجأنى بعض القوم باطلاق ثعبان حقيقى بالقرب منى . وتملكنى خوف شديد عندما اندفع الثعبان نحوى. ولم أكن اعلم أنه ليس ضاراً فأخذ القوم يغرقون فى الضحك على . لم يكن النوبة قوماً عدائيين ولكن مصائب الآخرين كانت تفرحهم. كانوا مثلا يعتبرون هجوم الضباع على أمرأة عجوز أمراً مثيراً للضحك . وكان لى فونوغراف صغير أحمله معى فى أسفـارى وأسمعهم منه بعض الموسيقى العسكرية التى يحبون الإصغاء اليها فيطربهم ذلك. ثم أضع عليه أسطوانة مسجلا عليها بعض الضحكات فيهتزون معها . وكانت دقات ساعتى تثير اعجابهم ، والسيارات

حدثاً بالغ الغرابة بالنسبة لهم . وكان الشباب منهم يجرى وراء سيارة المركز أو بجانبها وهم يضحكون فى تحد صارخ لها، يحسبون أنهم يستطيعون أن يسبقوها .

وكان بريدى يصلنى باللوارى من الأبيض كل أسبوع ، وخطاباتى من لندن تصل بعد عشرة أيام من تاريخ كتابتها اذا أرسلت بالبريد الجوى،أو بعد شهر بالبريد العادى . وفى موسم الأمطار . عندما تقفل الطرق ، كان البريد يرسل على ظهور الثيران لأنها أقدر من الخيول والبغال على السفر فى الأماكن ذات التربة الطينية . ورغم البطء فقد كان البريد يصل الى تلودى فى موسم الأمطار بانتظام وقد بللت الماء الخطابات . أما بريد رشاد فقد كان يرسل مع « الجراى» من محطة الرهد على بعد ثمانين ميلا للشمال ، يحمله على ظهره ويهرول به .

كانت جبال النوبة تقفل أبوابها أمام الزوار فى موسم الأمطار ؛ لهذا لم تكن تتاح لى فى هذه الفترة فرصة لقاء أحد من الأوروبيين الا النذر القليل . وكان هناك ثلاث أسر من المبشرين أزورها من وقت لآخر . وكانت تمر على ثلاثة أشهر كاملة دون أن يقع بصرى على أحد من بنى وطنى ، ولم يكن ذلك يزعجنى . وكان يزورنا فى الشتاء مدير المديرية دوقلاس نيوبولد مرتين أو ثلاث مرات ، ويمضى معنا عدة أيام يتجول خلالها بين الجبال والقرى . كما كان يزورنا أيضاً نائبه ليجرى تفتيشاً على المكاتب ، وبعض رؤساء المصالح الحكومية رغم أنه لم تكن ممثلة لدينا منها غير المصلحة البيطرية ومصلحة الزراعة . وكانت فرقة المشاة النوبية التابعة لقوة دفاع السودان تأتينا من كادوقلى على بعد مائة ميل ، فتمر على بعض الجبال ، وتؤدى فيها بعض مناوراتها وتمارينها ، وتبحث عن مجندين جدد . وكان من اسباب زيارتها أيضاً استعراض عضلات الحكومة وقوتها . وكانت زيارتها تبهجنى إذ يحضر معها بعض أصدقائى . وفى عام ١٩٣٧ جاءتنا من خارج السودان السيدة مارجرى برهام ، وهى شخصية ذات أهمية خاصة . وبقيت معنا عدة أيام واصطحبتنى فى بعض جولاتى لتتعرف على طريقة عملنا ومرامينا . وكانت خبيرة فى شؤون الادارة ذات اطلاع واسع ونظرة ثاقبة . وتوثقت أسباب الصداقة بيننا ، والتقينا بعد ذلك عدة مرات فى الأبيض والخرطوم ونيجيريا وأكسفورد . وكانت المديرية تنظم مؤتمراً كل عام قرب عيد الميلاد فى دلامى يحضره كل مفتشى المراكز ، والزراعيون

فولى مدير مصلحة الإقتصاد والتجارة ، يحضر من الخرطوم للمشاركة فى هذا المؤتمر ويسهم فيه بما يوسع من مداركنا فى المسائل الإقتصادية ويثرى من خبراتنا .

مهرجانات قبلية

وكنا نقيم مهرجاناً قبلياً فى يناير أو فبراير من كل عام يستمر يومين يحضره الرجال من سائر أنحاء الجبال ، وتحضره أيضاً القبائل العربية ، يخصص اليوم الأول منه لمواكب القبائل فى ملابسها القومية ، وأسلحتها التقليدية من حراب وسيوف ترفرف حولها راياتها ، ويتقدمها شيوخها على ظهور الجياد . وكان بعض أفراد القبائل العربية يلبسون الدروع الحديدية . وكان حاكم المديرية ومرافقوه يشاركون فى هذه المواكب على صهوات خيولهم ، ويستقبلون بالهتاف والترحيب . وكان عدد المشتركين فى مثل هذه المواكب يتراوح بين سبعة الى عشرة آلاف رجل . وكان مظهرهم يعكس درجة عظيمة من الثقة والهيبة . وكان مدير المديرية متى فرغ من تفتيش المسيرة القبلية ، يتجه نحو المقصورة ، وهى راكوبة من القش يرفرف على جانبيها علما الحكم الثنائى ، وهناك يجلس بين الاعيان والتجار والموظفين ورجال الأعمال من الاغاريق والشوام وزوجاتهم . وكانت فرقة تلودى الموسيقية تضفى على المكان كثيراً من البهجة بأنغامها الشجية ، وهى فرقة من الهواة يقودها الصول الجاك من قبائل الدينكا ، وكان قد تقاعد من العمل فى الجيش منذ وقت طويل ، والتحق بخدمة المستشفى مساعداً طبياً . وكان معظم أفراد الفرقة من الجنود المتقاعدين باستثناء ضارب الطار . وعازف المثلث اللذين كانا تلميذين بالمدرسة . وكنا نمدهم بالملابس والعمامات البيضاء ، والقمصان الطويلة ، والأحزمة الحمراء ، وصنادل الشرطة. وكانت الفرقة تقدم عشرة أنغام لانميز منها الا النذر القليل ، ولعلها كانت نغمات تركية . وكانت هذه الفرقة التطوعية مصدر ترفيه ، إذ تقدم معزوفاتها فى ميدان السوق مساء الخميس من كل أسبوع .

وكان مدير المديرية يقوم بتوزيع كساوى الشرف والميداليات والسيوف على بعض الزعماء القبليين ، وعلى غيرهم ممن قدموا خدمات جليلة للناس أو الحكومة

وكانت كساوى الشرف تلك ذات لون بنفسجى غامق ، تحليها خيوط ذهبية براقة . وكانت السيوف مصنوعة من الصلب ، لها أغماد من الجلد الأحمر ، ومقابض من العاج . أما الميداليات فقد كانت تقدم للزعماء ، وهى بيضاوية ، الشكل ذات سلاسل تتدلى منها ، فى وجه كل منها صورة للملك جورج الخامس ، وفى ظهورها صور لسفينة حربية وفنار وطائرة . وكان الزعماء القبليون يتنافسون بشدة للحصول على هذه الجوائز التقديرية . وأخيراً تأتى المسيرة ، وقد قام كل زعيم وشيخ بتدريب رجاله على دورهم فيها . وكانت كل قبيلة تنفخ أبواقها ، وتدق طبولها وتطلق صيحات الحرب ، وتنتهى فى منتصف النهار حيث نرجع الى بيوتنا لنزيل عن أجسامنا الأوساخ التى تعلق بها من سحب التراب الأحمر الذى تثيره المسيرة . وكان رجال القبائل يتجهون نحو معسكراتهم تحت ظلال الأشجار على أطراف المدينة حيث يقومون بإعداد طعامهم من لحوم الثيران والضأن وغيرها مما توزعه عليهم الحكومة .

وكنا نشهد فى اليوم الثانى للمهرجان افتتاح المعرض الزراعى الذى تخصص فيه جوائز لأحسن الابقار والخيول والأغنام ، ولأحسن المحاصيل . وكانت لجان التحكيم تعمل تحت رئاسة الضابط البيطرى ومفتش الزراعة . وكنا نعقد أيضاً مباريات فى المصارعة والجرى وسباق الخيل والبولو ، كما كان تلاميذ المدرسة يقدمون شيئاً من الألعاب الرياضية تنتهى بلعبة القلعة حيث تتشابك أيديهم ، ويصعد الصغار منهم على أكتاف الكبار ، ويقف على رأس القلعة أصغرهم سناً وهو يلوح بعلمى الحكم الثنائى ، فيقابل ذلك بالتصفيق والاستحسان .

كانت هذه المهرجانات القبلية أمراً مألوفاً فى سائر أنحاء السودان ، يشترك فيها أكبر عدد من الفرسان ، وتعكس عظمة المشتركين فيها وقوتهم ، وتساعد على التأليف بين قلوب المواطنين ، وتسوية ما كان قائماً بينها من خصومات ومنازعات ، وتمكن المسئولين من الاجتماع بزعماء القبائل لبحث المشاكل المشتركة ، وتوفير الحلول لها ، وتنقية العلاقات والنظر فى الشؤون القبلية .

كنت امضى طيلة فترة الشتاء بتاودى — من أكتوبر إلى مايو — وفى فصل الصيف أذهب الى رشاد لأنوب عن مفتشها فى تصريف مسئوليته ، واتيح له بذلك فرصة المضى فى اجازته . وكنت استمتع حقاً بهذه الفترة فى رشاد إذ أجد الريف فيها

لم يزل أخضر ، والهواء عليلا . وكانت رشاد تقع فى منخفض بين الجبال . وبها بالإضافة الى المركز المشاد فى شكل قلعة مربعة من الحجر : السوق وقشلاق الشرطة ومنازل الموظفين ، وعدد من الخزانات لحفظ مياه الأمطار التى تشتد الحاجة لها فى فصل الجفاف، وحديقة لمد المركز بالفواكه والخضروات طلية أيام السنة . وكنت أكثر من الرياضة أما سيراً على الأقدام أو عملا فى الحديقة ، وفى يوم الجمعة أذهب الى السوق فأجلس مع التجار ، وأشرب معهم القهوة . وكان من واجبى أيضاً أن أعد ميزانية المركز فى ذلك الوقت ، مستعيناً برئيس الحسابات والمأمور نصرالدين أفندى شداد . كنا نغرق فى الأرقام أسبوعين أو نحوهما، نعد خلالها الميزانية ونبعث بها إلى الابيض . وكنت عند نهاية هذا العمل الشاق ارتحل إلى تلودى على ظهور الخيل والبغال ، أو شمالاً إلى محطة السكك الحديدية فى الرهد اذا ما حانت مواعيد إجازتى السنوية .

وانتهت فترة السنوات الأربع والنصف التى قضيتها فى جبال النوبة الشرقية فى ديسمبر من عام ١٩٣٧ فقررت الحكومة بعدها نقلى . وكان مقرراً أن أنقل قبل عام، ولكنى تقدمت برجاء طلبت فيه مد فترة عملى فى جبال النوبة سنة أخرى لأتمكن من تنفيذ المشاريع التى كنت تقدمت بها لمدير المديرية ونالت موافقته . فاستجابت الحكومة لرجائى .

كان من حسن حظى أن أتيحت لى الفرصة لتقلد مسئوليات متنوعة فى الجبال الشرقية أكسبتنى خبرة واسعة ، وأن أعمل مع رجال أحبهم واعجب بهم ،وبين أناس يغمرونى بودهم ، ويبهجونى بمرحهم . وغادرتهم بعد أن تعلمت منهم وبينهم وفى ديارهم دروساً كثيرة . متمنياً لهم النهضة والعزة والتقدم .

مساعد لمدير المديرية

وغادرت تلودى إلى الأبيض فى ديسمبر من عام ١٩٣٧ وأنا أجهل كغيرى من الناس ما يحمله العام الجديد من مفاجآت . ورأى مدير المديرية أن يبقينى فى رئاستها بعض الوقت لأنتفع من العمل فيها ، وأثرى خبرتى الإدارية حتى يتحدد الموقع الجديد لعملى ، فتسلمت فى مستهل عام ١٩٣٨ مسئوليتى بالأبيض كمساعد شخصى

للمستر دوقلاس نيوبولد ، وقمنداناً لشرطة المديرية . وقد انتفعت من عملى فى الشرطة كثيراً واستمتعت بالعمل مع نيوبولد . واتيح لى أن ألتقى بالموظفين ، البريطانيين الذين كان عددهم يبلغ أثنى عشر رجلا وأن أتعرف عليهم . كنت أنظم الملفات ، واحفظ الخطابات والبرقيات ، واعد الردود عليها . وفى المساء كنا نلعب البولو أو الاسكواش ، أو نركب الخيول على سفوح القيزان الرملية المحيطة بالأبيض . وكان نيوبولد كثيراً مايقيم حفلات لأعيان المدينة ، وزعماء القبائل ، والتجار ، وبعض الموظفين السودانيين فى منزله . وكنا نقوم أحياناً بزيارة نادى الموظفين السودانيين حيث تجرى مناقشات ومداولات جادة حول الموقف الدولى الذى كان ينذر باندلاع الحرب العالمية الثانية .

وكان من بين أعمالى أيضاً الاشراف على سجن المديرية حيث يمضى ثلاثمائة من السجناء أحكاماً طويلة المدى ، والقيام بتفتيشه . وكان على أيضاً أن أشهد تنفيذ حكم الإعدام . وقد جاءت تجربتى الأولى فى هذا الصدد بعد وقت قصير من وصولى الى الابيض ، ثم حضرت فيما بعد تنفيذ أكثر من ستة أحكام أخرى ، وكانت تلك مهمة ثقيلة جداً على نفسى ، غير أن الشجاعة النادرة للمحكوم كانت تنتزع إعجابى . كانوا يسيرون نحو الموت فى خطى ثابتة ، ورباطة جأش وشجاعة وفحولة لم أر بينهم من يتهيب الموت . وكانوا قد ارتكبوا جرائم القتل بوحشية مفرطة ومع سبق الإصرار والترصد ، فلم تر المحكمة بد من أصدار الأحكام عليهم بالموت شنقاً . وكنت أزور كلاً منهم فى زنزانته فى المساء السابق للتنفيذ لأخطره بأن استئنافه ضد الحكم الصادر عليه قد رفض . وكانوا يستقبلون ذلك منى بشىء من عدم الاكتراث . وعلى الرغم من أنى كنت واثقاً من توفر الأسباب المبررة لتنفيذ أحكام الاعدام فى القضايا الكبرى ، لم يخالجنى أدنى شك فى أن طريقة التنفيذ كانت تفتقر إلى الخيال ولاتحترم آدمية المحكوم عليهم . كان الواحد منهم توثق يداه خلف ظهره ، ويغطى وجهه بقناع ، ثم يساق إلى المشنقة المنصوبة فى فناء السجن ، وهناك يصعد عدداً من الدرجات لايقل عن عشر أو خمس عشرة درجة حتى يبلغ منصة المشنقة . وكان هذا يجرى تحت أبصار السجناء الآخرين الذين كانت تصدر عنهم عبارات التشجيع للمحكوم عليهم . وكان من واجبى عندما تكتمل الاجراءات

أن أصدر اشارة التنفيذ . وبعد أن يتدلى الرجل من الحبل تمضى فترة ربع ساعة يتأرجح خلالها بدنه،ويتحرك رأسه يميناً ويساراً مما يدل على وجود بقية من الحياة فيه . وفى آخر الأمر أدخل مع الطبيب الى قاع المشنقة حيث يزيح الطبيب قميص الرجل ويكشف على قلبه،ويصدر قراره بموته . حقاً لقد كنت شديد الكراهية للأيام التى أصرف فيها هذا العمل الثقيل على النفس .

كان السودانيون يمتازون بضبط النفس والصبر على المكاره ، أجسامهم خشنة وبنيتهم قوية . وأذكر بهذه المناسبة أن كنت أستقل القطار ذات سنة من السنوات من الخرطوم إلى الابيض . ووصلنا إلى محطة الرهد عصراً ، وهى بلدة صغيرة بها مدرسة أولية وشفخانة . وكان معنا فى القطار رجل يركب الدرجة الثالثة ويحمل عدداً من الرماح على عادة السودانيين عند السفر ، ويحمل أيضاً أمتعة أخرى كثيرة. ويبدو أنه لم يكن من المعتادين على ركوب القطار، ولايستطيع تقدير سرعته أو أن شخصاً قد دفعه من داخل العربة فسقط بين عربتين من عربات القطار فبترت العجلات ساقيه ، وتوقف القطار الذى لم يكن فيه من البريطانيين غير المستر جورج بريدن ، نائب مدير كردفان ، وشخصى . وسرعان ماعلمنا بنبأ الحادث من كمسارى القطار ، فأسرعنا الى مكانه لنقدم مانستطيع من عون . وكان بعض الفضوليين قد تجمهروا وهم ينظرون فى صمت الى الرجل المسكين،وكان لم يزل محتفظاً بوعيه ، ساقاه تحت عجلات القطار ، وعلى وجهه أمارات الحيرة ، وقد تبعثرت حوله رماحه وممتلكاته الأخرى . ثم جاء ناظر المحطة فى ملابسه الرسمية وقبعته ، يبدو عليه الحزم ، ويخلع على نفسه درجة عظيمة من الأهمية . وكان أشد أهتماماً بالتقرير الذى يعده عن الحادث منه بضحيته ، فأشرنا عليه بضرورة نقل الرجل الى الشفخانة ، وطلبنا منه أن يمدنا بنقالة ، ولكن القطار لم تكن فيه نقالة ، وطلبنا معدات الاسعافات الأولية ولكن القطار كان خلواً منها أيضاً . فأضطررنا لإرسال رجل ليخطر الشفخانة ويستنجد بها . وجاء الممرض يحمل معه نقالته . وكان شاباً ذا كفاءة عالية . وتحرك القطار قليلا لانتشال ساقى الرجل من تحت عجلاته ، ولكنه مع الأسف توفى قبل أن يصل الى الشفخانة .

وكان قد وقع لى حادث آخر قبل عام تقريباً ولكن الحظ كان فى تلك المرة

حليفنا . كنت مسافراً من كادوقلى إلى تلودى ، وتوقفت فى منتصف الطريق لدى قرية تدعى كوكو ليمون . لآخذ معى ملك تلك القرية . وكان اسمه كاسمها كوكو ليمون . وكنت أركب سيارة المركز . واجلست الملك ونائبه معى وقمت بقيادة السيارة . وكنا فى ذلك الوقت نخلع عن السيارات أبوابها لتمرير الهواء . وكان الملك عند ركوبه السيارة قد اراني عصا مزركشة كان فخوراً بها . وانطلقنا فى طريقنا الى تلودى ، ولم يكن الطريق ممهداً . وكنا نسير بسرعة ثلاثين ميلاً فى الساعة ، وفجأة أفلتت العصا الثمينة من يد الملك وسقطت على الأرض فاندفع وراءها دون تقدير منه لسرعة السيارة . وتوقفنا . ورجعنا إلى الوراء حيث سقط الملك ، فوجدناه فاقد الوعى ، والدم ينزف من رأسه ، والتفت الى نائبه يتهمنى بقتله فوافقته رغم أنه وحده كان مسئولاً عما أصابه .. وحملناه الى السيارة ، وانطلقنا بها فى سرعة شديدة الى تلودى . وهناك ذهبنا الى المستشفى ،ولكننا لم نجد الطبيب فتركنا مريضنا فيه وذهبت الى بيتى ، وقضيت ليلتى مسهداً . وفى الصباح الباكر ركبت حصانى وذهبت الى المستشفى لاطمئن على حالة الملك فوجدته واقفاً على قدميه تغطى رأسه اللفافات الطبية النظيفة ، وعلى وجهه ابتسامة . وفى عصر اليوم التالى رجع الى قريته راجلا .

وكان من عادة مدير المديرية بالأبيض أن يعقد مرة أو مرتين فى العام حفلاً (تشريفة) . وكان عبء التحضير لهذه الاحتفالات يقع على عاتقى . وكان عدد المدعوين يربو على مائتى شخص من الأعيان ، وكبار الموظفين ، والمتقاعدين ، يلتقون فى رئاسة المديرية . وهى مبنى من الطوب الأخضر يرجع عهده ، الى الحكم التركى المصرى . وكانوا يتدفقون اليها فى الساعة التاسعة صباحاً حيث يحيون المدير ويجلسون على المقاعد ليحتسوا الشاى والقهوة . وكانت تقدم لهم المأكولات من البسكويت والكيك . وكان التجار منهم يرتدون العباءات ، ويرتدى الموظفون الملابس الافرنجية ، أما المتقاعدون منهم فقد كانوا يحضرون فى زيهم الرسمى الذى كانوا يلبسونه قبل تقاعدهم ، وهم يحتفظون به سليماً خصيصاً لهذه المناسبة . وكان العسكريون يغطون رؤوسهم بالطرابيش الحمراء ، ويزينون صدورهم بالأوسمة والنياشين .

إتقان اللغة العربية

ومع تباشير الربيع جاء أمر نقلى إلى أم درمان كقمندان للشرطة ومدير لمدرسة تدريب المآمير ومساعد لمدير الأمن العام والمخابرات . وكان يشغل هذه المناصب قبلى المستر وليم لندسى الذى التحق بالخدمة السياسية فى السودان عام ١٩٣٢ . ثم نقل الى المصلحة القضائية فى عام ١٩٤٤ ، وأصبح بعد عشر سنوات من العمل فيها رئيساً للقضاء . حقاً لقد كنت سعيداً بهذا النقل . وكان لابد لى من تحسين مستواى فى اللغة العربية لأتمكن بذلك من تصريف مسئوليتى على خير وجه . لهذا طلبت من أحد أصدقائى وهو حسن أفندى على كرار الذى كان من المعلمين المرموقين أن يعطينى دروساً فى اللغة العربية مرتين أو ثلاث مرات أسبوعياً . كان حسن صديقاً وفياً أعتز بصداقته وأفخر . وكان والده الشيخ على كرار متعهداً لنقل البريد بين كردفان ودار فور . وكان البريد فى ذلك الوقت ينقل بالجمال . ولم أزل أذكر ذلك الشيخ الوقور يجلس على مقعده خارج داره فى الأبيض . وكان لصديقى حسن عشر بنات ، أما زوجته فقد كانت سيدة محترمة ذكية تتحلى بروح مرحة لاتتهيب الاختلاط بالرجال فى المناسبات التى تجمع بين الرجال والنساء . وكانت كزوجها فخورة ببناتها . وإنى لأذكر حسناً يحدثنى ضاحكاً أنه يحتاج لبنت اضافية واحدة ليتمكن من تأليف فريق نسائى لكرة القدم . وفى عام ١٩٤٩ رزقه الله بابنه الأول فأسعده ذلك وأسعد أسرته وأصدقاءه .

وكان حسن شديد الإعجاب بالمستر دوقلاس نيوبولد . وفى عام ١٩٤٥ كتب الى حفيدته فى انجلترا خطاباً قال فيه :

« إنى أتمنى أن تحضرى إلى السودان يوماً فتزورينا وتزورى قبر سير دوقلاس نيوبولد ، وتلمسى بنفسك مقدار مايكنه له كثير من السودانيين من تقدير وصداقة . إننى أحتفظ بصورته فى حجرة نومى ، وكثيراً ما أزور قبره . لقد كان شديد العطف على وعلى أهل هذا البلد » .

وكان حسن لاعب بولو مقداماً ، يختار لركوبه أكثر الخيول جموحاً . وفى إحدى المباريات الهامة جنح حصانه منذ البداية بشكل مفاجىء ، وأخذ يصول ويجول

فى الميدان دون هدف مهدداً بذلك منه اللاعبين الآخرين . ولم يستطع حسن طيلة فترة المباراة أن يضرب الكرة لأنه كان مشغولا بالسيطرة على حصانه . ومازلت أذكر منظره وهو على ظهر الجواد، ورجلاه مشدودتان على الركاب لحفظ توازنه. وقد طار قميصه اثر تقطع زرائره ، وسقطت خوذته وراءرقبته ، وفجأة أقبلت الكرة تجاهه فضربها بقوة فولجت المرمى دون قصد منه رغم بعد المسافة . وبهذه الضربة العشوائية تحقق لنا النصر فى تلك المباراة .

كان حسن سريع البديهة ، عظيم المرح ، زكى الفؤاد ، أسهم كثيراً فى خدمة بلاده . . وقد توفى فى عام ١٩٨٢ . وكان قد أفادنى كثيراً بدروسه القيمة فى تحسين لغتى العربية . وكنت فى ذلك الوقت أعتزم زيارة منطقة الخليج والعراق وفلسطين أثناء اجازتى السنوية . وقد تمكنت من تنفيذ هذا البرنامج. ثم أمضيت بقية اجازتى فى بريطانيا وقفلت منها راجعاً إلى السودان .

وفى أغسطس من ذلك العام صدر منشور عن مكتب السكرتير الإدارى يعلن عن فرصتين لانتداب اثنين من العاملين فى الخدمة السياسية بالسودان للعمل فى حكومة فلسطين على أن يكون كل منهما أعزب ، ودون الخامسة والثلاثين من عمره . وكانت فلسطين فى ذلك الوقت تسودها الاضطرابات بسبب الهجرة اليهودية إليها . وكان سير هارولد ماكمايكل قد عين مندوباً سامياً لها بعد أن أمضى عامين حاكماً لتنجانيقا .

وعلى الرغم من أن منصبى فى أم درمان كان مغرياً ، فقد دفعنى للتقدم لإحدى الوظيفتين فى فلسطين ، ما كانتا تنطويان عليه من مغامرة . وشجعنى على ذلك أيضاً المستر نيوبولد . وتم أختيارى بالفعل ، وابتعدت عن السودان بعض الوقت . ذهبت الى فلسطين .

الفصل السادس

العودة الى السودان : ١٩٤٥-١٩٤٩

التقيت بسلفيا كورنول – كلاين * لأول مرة فى حفل غداء أقامه فى أغسطس من عام ١٩٣٧ ابن عمها مارتن بار فى النادى الشرقى بميدان هانوفر بلندن. وفى اليوم التالى لهذا الحفل انتهت إجازتى ورجعت إلى السودان . ولما وصلت إلى الأبيض ارسلت لها خطاباً ، ردت عليه بعد مضى وقت قصير . وبهذا بدأت سلسلة من المكاتبات بيننا اتصلت لست سنوات . كنا أول الأمر نتبادل الرسائل كل شهرين أو ثلاثة ، ثم تحسن الموقف فأصبحنا نتبادلها مرة كل شهر . حتى اذا ما كان عام ١٩٤٢ أصبح تبادل الخطابات بيننا أسبوعياً . لقد كانت صبابتنا طويلة المدى، رغم اننا لم نلتق خلالها إلا قليلاً ، ولم نتبادل غير الكلمات المكتوبة . ولكن ذلك أرسى بيننا أساساً من الود عميق الجذور . وكان كل منا يحس بأنه يقترب من الاخر بصورة تفوق الخيال . ورغم هذا فقد كنا ندرك أن لقاءنا المقبل . رغم ماينطوى عليه من معنى عظيم لنا ، قد لايترتب عليه شيء غير النظرة العاطفية الخيالية .

وكنا قد تناولنا الغداء معاً مرة أخرى بلندن فى شهر ديسمبر السابق لنهاية الحرب . فى الأسبوع الأول لعودتى الى أنجلترا . واستبان لنا أن العلاقة التى ربطت بيننا على الورق كانت أسمى من النظرة العاطفية العابرة . كانت سلفيا مشغولة طيلة النهار بعملها فى وحدة التصوير التابعة للجيش . وكانت تعمل فى بعض الليالى ملاحظة للحرائق من سطح عمارة شاهقة ، تراقب طائرات العدو وهى تشن غاراتها . وكانت بيوت أهلنا قريبة لاتفصل بينها مسافة كبيرة .

وعلى الرغم من أن فرص لقاءاتنا كانت محدودة ، واجازتى كانت قصيرة فقد استطعنا خلال اسبوعين أن نتخذ قرارنا بالزواج . وكنا ندرك أننا بذلك القرار منا نقدم على مغامرة ، ولكننا كنا ندرك أيضاً بأنه ليس هناك زواج يخلو من المغامرة ، وأن أى الزواج كفيل بأن يحيط نفسه بسياج من الاستقرار .

---

* SILVIA CORNWELL - CLYNE

وفى الثانى والعشرين من يناير ١٩٤٥ تم عقد قراننا فى كنيسة كاية ونشستر على يد أستاذى بنق ديفيد . وكان (وزيرى) فى هذا الزواج جاك بار، وحفل زواجنا كان بسيطاً بسبب ما تفرضه سنوات الحرب من تقشف. وقدتبرع لسلفيا صديقاتها بكبونات ما خصص لهن من أقمشة ليمكنها من شراء القماش اللازم لصنع فستان الزفاف . وحضر والدنا وشلة من الأصدقاء حفل الزفاف فى ونشستر. ومن هناك ذهبنا بالقطار الى سومرست لتمضية شهر عسل قصير . ولكنه كان آية فى الروعة والبهجة . وكان ذلك خلال شهر يناير فى برد قارص . وعجزت عربة التاكسى ، بسبب تراكم الجليد ، عن حملنا من محطة القطار، فاضطررنا لحمل حقائبنا والخوض فى الجليد . وأحسنت إدارة الفندق استقبالنا وأشعلت النار فى غرفتنا لتمدنا بالدفء الذى كنا فى أمس الحاجة اليه . وأخذت سعادتنا على عظمها عند الزواج تتنامى وتزدهر على مر السنين . وكانت سلفيا فى الخامسة والعشرين من عمرها ، وكنت فى السادسة والثلاثين .

كانت سلفيا شجاعة حقاً حين قررت اصطحابي للسودان . فهى لم تر أفريقيا من قبل ، ولم تر الشرق الأوسط . وبدأنا رحلتنا ولما يمضى على زواجنا وقت طويل . وكانت لحظة الفراق قاسية على والديها . اذ كانا قد فقدا ابنهما الوحيد فى عام ١٩٤٢ الذى كان يعمل خلال الحرب طياراً فى سلاح الجو الملكى . وفى ليفربول ركبنا الباخرة فى مارس ١٩٤٥ . وكان الحلفاء حينئذ قد اجتازوا نهر الراين فى المانيا ، والروس نهر الاودر. وكان الخناق قد ضاق على ألمانيا النازية . وأشرفت الحرب على نهايتها . ورغم ذلك ظلت الغواصات الألمانية نشطة فى البحار. وكنا نبحر فى قافلة بحرية تحرسها البوارج الحربية. وتوغلنا فى المحيط الاطلنطى قبل أن نشق طريقنا عبر مضيق جبل طارق الى البحر الأبيض المتوسط . وكانت ظروف السفر شاقة اذ كنت أقيم مع أربعة وعشرين رجلا فى عنبر واحد ، بينما كانت سلفيا تقيم مع عشرين أمرأة من الاقباط والاغريق والقبارصة . وكان بينهن رجل أفلح فى اخفاء عمره الحقيقى ، وأدعى أنه صبى صغير لايمكن له أن يسكن فى عنبر الرجال . وكان وجوده فى عنبر النساء مصدر ضيق كبير لسلفيا ، إذ كان يتظاهر بالنوم فى حين أنه كان يسترق النظر الى اجساد السيدات .

وعند وصولنا إلى جبل طارق انفصلنا عن سفن الحراسة . وواصلنا سفرنا عبر البحر الأبيض إلى الاسكندرية ، وهناك وجدنا الجمارك المصرية مثالاً للفوضى. كان معنا صندوقان كبيران بهما الهدايا التى قدمت لنا بمناسبة زواجنا عدد كبير من الاسطوانات ملفوفة بالورق . ورغم تأكيدنا لموظفى الجمارك بأنه ليس مسجلا فى تلك الأسطوانات شيء غير الموسيقى أصروا على الاستماع لها للوثوق من أنها لاتحتوى على تحريض على التخريب . ولم نكن نحمل فونوغرافا يمكن إدارة الأسطوانات عليه ، ولم يكن لديهم ما يفعلون به ذلك . وتم احتجازنا فى حظيرة الجمارك فترة طويلة ، ولم يطلقوا سراحنا الا عندما حان موعد غدائهم ، فأدركنا القطار الذى يقلنا الى القاهرة فى آخر لحظة .

وبعد ثلاثة أيام أمضيناها فى العاصمة المصرية ركبنا القطار الى اسوان ، والسفينة الى وادى حلفا فالقطار مرة أخرى للخرطوم . وكان دوقلاس نيوبولد قد أختير سكرتيراً إدارياً . وكتب موجها الدعوة لنا للاقامة معه فى منزله . ولكننا علمنا ونحن فى وادى حلفا أنه لزم سرير المستشفى أثر حادث مؤلم وقع له . وقد توفى قبل وصولنا الخرطوم . وكان موته فقداً كبيراً للسودان ولأصدقائه العديدين . وقد خلفه فى منصبه نائبه المستر روبرتسن الذى كان قد التحق بالخدمة السياسية فى السودان فى عام ١٩٢٢ وتقاعد عام ١٩٥٣ . ثم عين حاكماً عاماً لنيجيريا خلال الفترة ١٩٥٥ — ١٩٦٠ .

أنتشار الوعى السياسى

صار السودان فى عام ١٩٤٥ . بعد خمس سنوات ونصف من الحرب. مختلفاً عما كان عليه فى عام ١٩٣٨ . ولم يكن التغيير الذى طرأ عليه مما يمكن رؤيتــه ولكنه مما يمكن الشعور به لاسيما فى المدن . لم يكن هناك من قبل السودانيين شعور بانعدام الود تجاه البريطانيين . ولكن ساد بينهم شعور بالاستقلال واعتداد بالنفس . وكان الآلاف من أهل المدن وكثير غيرهم من أهل الارياف، المتعلمين منهم وغير المتعلمين ، قد تطوعوا للعمل بقوة دفاع السودان ، وعملوا فى كثير من الاقطار الأخرى وأتقنوا استخدام الأسلحة الحديثة ، ورأوا الأوربيين يقتل بعضهم بعضاً ، بل هم

أنفسهم اشتركوا فى قتل الأوربيين . وكان هؤلاء الرجال قد أخذوا يعودون إلى بلادهم من ساحات الوغى . واخذ المستنيرون منهم وأصحاب الوعى السياسى من أهل السودان يزعمون أن بريطانيا ما كانت لتبقى الشرق الأوسط فى قبضتها خلال العامين ١٩٤١ ـ ١٩٤٢ لولا عون السودان . ويتجاهلون ما كاد يحيق ببلادهم من نتائج وخيمة بفعل أكتساح ايطاليا لها لولا العون البريطانى والهندى . وكان ميثاق الاطلنطى وما بشر به من مبادىء سامية حول الحرية وتقرير المصير . مما دفع المنادين بتغيرات دستورية سريعة للجهر بها . ولم يكن هناك مفر فى ذلك الوقت من مراجعة العلاقات بين بريطانيا ومصر ، خاصة فيما يتعلق بمستقبل السودان . وكان بالبلاد فى ذلك الوقت صحافة ذات أثر ونفوذ . وكانت مؤسسات الحكم المحلى فى المدن الكبرى والمديريات التى نمت وتطورت خلال سنوات الحرب قد أتاحت لكثير من السودانيين فرصة الإسهام فى إدارة شؤونهم . وكان قد أنشىء فى مستهل عام ١٩٤٤ مجلس استشارى لشمال السودان . وعلى الرغم من أنه كان هيئة استشارية ، وانه تعرض للنقد من الطبقة المستنيرة بسبب افتقاره للسلطات التنفيذية ، وعدم تمثيله للجنوب ، فقد كان خطوة أولى نحو قيام حكومة ديمقراطية . وقد تم بالفعل استبداله بعد وقت ليس بالطويل بجمعية تشريعية منتخبة وبمجلس تنفيذى .

وكانت شوكة الحركة الوطنية السودانية قد تنامت بالتدريج ، بدأت فى الظهور فى مستهل العشرينات بايعاز من مجموعة صغيرة كانت تتجاوب مع الحركة المصرية ، وترمى الى توحيد مصر والسودان تحت التاج المصرى ـ وقد باءت هذه المحاولة بالفشل فى عام ١٩٢٤ ، وخفت صوتها خلال السنوات العشر التالية . وفى عام ١٩٣٦ ، وتحت تهديد موسلينى للحبشة ، وما قد ينجم عنه ، عقدت بريطانيا ومصر معاهدة تحالف اشتملت على إشارة للسودان . وقد استنكر السودانيون المتعلمون الذين كان عددهم حينئذ قليلا ، ولكنه متزايد ، عدم استشارتهم فى الأمر ، بينما واصلت مصر دعواها بأن السودان جزء لايتجزء منها ، وهى دعوى ظلت ترددها منذ عام ١٨٩٩ ، وتدعمها بأن لها عليه السيادة الرمزية ، ان لم تكن الفعلية .

وفى مطلع عام ١٩٣٨ قام جماعة من المثقفين السودانيين بانتخاب هيئة منهم للتعبير عن الأمانى الوطنية لبلادهم أسموها مؤتمر الخريجين . وكان ذلك أول معلم

ينطوى على التجسيد الحتمى لمطلب تقرير المصير فى طريق التطور السياسى السودانى. وعلى الرغم من أن المناداة به كانت سابقة لاوانها بالنسبة للسلطة الحاكمة ، فانه كان النتيجة الطبيعية لما ألزمت به تلك السلطة نفسها لتطوير ذلك القطر ، ونشر ألوية التعليم فيه . وكتب المؤتمر للحكومة خطاباً يطلب فيه منها أن تستشيره كهيئة فى سائر المسائل العامة . وكان الضعف فى هذا الاتجاه نابعاً من أن تمثيل المؤتمر لم يكن يتجاوز ربع الطبقة المستنيرة ممن حصلوا على دراسة فوق الأولية ؛ وكان عددهم لايتجاوز خمسة آلاف شخص ، معظمهم موظفون فى الحكومة . وبهذا لم يكن يستطيع التحدث باسم المتعلمين السودانيين كلهم . دع عنك القطر بأسره . وجاء رد الحكومة على المؤتمر مخيباً لآماله ، لاسيما آمال سكرتيره الفخرى اسماعيل الأزهرى الذى كان يعمل مدرساً فى ذلك الوقت ، ثم ذاع صيته خلال العشرين عاماً التالية .

وأزداد نشاط المؤتمر خلال الحرب ، واستطاع أن ينشىء علاقات مع كثير من السياسيين المصريين البارزين . وفى عام ١٩٤٢ بلغ التوتر بينه وبين الحكومة درجة كبيرة خطيرة ، وتقلص نفوذ العناصر المعتدلة فيه ، وأصبح عند نهاية الحرب حزباً سياسياً شديد التطرف فى تبعيته لمصر . وبينما كانت الحكومة تستجمع قواها تأهبا لمواجهة خلافاتها مع المتطرفين فى المؤتمر بقيادة اسماعيل الأزهرى ، تجددت المنافسة المريرة بين الطائفتين الدينيتين السائدتين فى شمال السودان ، الأنصار بزعامة السيد عبدالرحمن المهدى ، والختمية بزعامة السيد على الميرغنى . وكان الموالون لكل طائفة منها يربو عددهم عن مايونى شخص ، وهذه نسبة كبيرة من المسلمين فى السودان الشمالى . أما الجنوبيون الذين كان عددهم نحواً من مليون ونصف المليون فلم يكونوا قد بلغوا أية درجة من الوعى السياسى ، لهذا لم يكن لهم فى هذا المجال نشاط . وكان العداء والبغضاء بين الختمية والأنصار فرصة مواتية انتهزها المصريون لتعزيز موقفهم . وفى خلال السنوات التسع التالية تطورت الأحداث تطوراً فاق الحسبان . ولعلنا كنا نستطيع أن نتحلى بمزيد من الخيال أو المرونة لمواجهة تلك التطورات . ومهما بلغ إعجابنا بالقوة الكامنة فى المثقفين ذوى الوعى السياسى ، أو كان تعاطفنا مع أمانيهم القومية ، فقد كانت هناك ثلاثة اعتبارات رئيسية لانستطيع اغفالها أو التنكر لها : أولها التفكير فى موقف زعماء القبائل والعشائر الذين كنا

نعتمد على ولائهم وتعاونهم طيلة السنوات الأربعين الماضية . وهم بحكم العرف والتقاليد قادة الاغلبية العظمى من سكان السودان ، ولم يكونوا يتعاطفون مع مؤتمر الخريجين ومؤيديه فى المدن . وثانيها جنوب السودان الذى لم يكن قد تأثر بعد بالسياسة فى الشمال ، وهو يتألف من ثلث سكان البلاد ، أهله من الوثنيين ينظرون بشك وريبة شديدة إلى عرب الشمال . وثالثها حرصنا على دحض ادعاءات المصريين فيما يخص السيادة على السودان ، وهى ادعاءات كنا نظنها غير مقبولة لدى أغلبية أهل السودان ، وقد برهنت الأحداث على صدق موقفنا تجاهها .

إلى الابيض من جديد

وفى إبان هذه الحركة السياسية ، وخضم ماتميزت به من وعى ، تم تعيينى مفتشاً لمركز الأبيض . وكان ذلك مبعث سرور عظيم لى إذ كان لى فيها الكثير من الأصدقاء بالاضافة الى أنها مكان مناسب لأخذ عروسى معى .

لم يكن العمل فى الأبيض يختلف كثيراً عما كان عليه قبل سبع سنوات . كنت أكرس معظم وقتى لإدارة مجلس بلدى المدينة ، وأشرف على توزيع السلع الضرورية التى كنا نعانى نقصا حاداً فيها ، وأشرف أيضاً على تسريح الجنود . وتخطيط المدينة وتطورها ، وتحسينها . وكانت الأبيض نهاية الخط الحديدى للغرب . وسوقاً رئيسياً للصمغ العربي ، ارتفع عدد سكانها خلال الحرب الى ستين ألفاً . واخذت تحتل مكانها كمركز تعليمى لغرب السودان كله . وكانت المدينة تشتمل على جزء من الريف حولها ، يتطلب منا التجول بين البديرية ، وهم قوم مسالمون يعتمدون فى معيشتهم على قطعانهم من الضأن والبقر . وعلى الزراعة وجمع الصمغ من أشجار الهشاب التى تكثر فى سهول وسط كردفان وقيزانها الرملية . وكانت غابة شيكان . مسرح المعركة الحربية التى أباد فيها انصار الامام المهدى جيش هكس تقع على بعد عشرين ميلا جنوب الأبيض :

كانت مشاكلنا فى الأبيض متعددة الأنواع . فى صيف عام ١٩٤٧ ظهر باء الجدرى فى الأحياء التى يقطنها الفلاتة الوافدون من غرب أفريقيا ، ورغم نجاحنا فى محاصرة الوباء فقد كانت ضحاياه كثيرة جداً . وكان أقرباء المرضى

يأخذونهم إلى خارج المدينة حيث يدفنونهم حتى رقابهم فى الرمال اعتقاداً منهم أن ذلك يخفف من آلامهم ، وهو اعتقاد خاطىء . وكان الكثيرون منهم قد رفضوا التطعيم ضد المرض ظنا منهم أنه يسبب العقم . فواصل الوباء انتشاره بصورة فظيعة ، مما اضطررنا لمحاصرة الحى المنكوب الذى كان عدد سكانه يبلغ عشرة آلاف شخص . وقمنا بحملة للتطعيم امتدت الى البيوت . وامضينا فى هذا العمل أسبوعاً كاملا . وكان علينا عند تصريف هذه المسئولية أن نتحلى بكثير من الصبر والكياسة . وكانت قوات الشرطة تؤدى واجبها فى كفاءة ، كما كان أفراد المصلحة الطبية رقيقين فى معاملتهم للأهلين . ولم تواجهنا مقاومة عنيفة . وفى ظرف شهر واحد قضينا على الوباء قضاء مبرماً . وكنا فى أوقات فراغنا نمتطى صهوات جيادنا ، ونقبل على لعب البولو مرتين فى الأسبوع . أما سلفيا فقد ركزت اهتمامها فى المسرح . ونظمت جمعية للتمثيل بها أكثر من اثنى عشر عضواً من السودانيين والبريطانيين ، وكانت تقدم لنا مسرحية كل أسبوع . واستطعت بمعاونة بلدية الأبيض ، ومصلحة السجون أن أبنى ملعباً لألعاب القوى نقيم فيه سباق الجرى والموانع وقد جذب هذا النشاط منا كثيراً من المتفرجين المتحمسين . وكنا نسكن فى بيت متواضع به أربعة غرف وحمام وحديقة من الأشجار . فى موسم الأمطار نزرع حوضين أو ثلاثة بالأزهار المتعددة الألوان . وكانت خدمات الكهرباء قد مدت الى المدينة فاشتريت لأول مرة مذياعاً وثلاجة . وفى الليل كنا نجلس على مصطبة من الأسمنت فى وسط الحديقة نتناول فيها عشاءنا . وكنا ننام فى سطوح المنزل . وكانت الحياة الاجتماعية بسيطة ومحدودة ، ندعو بعض الضيوف مرة كل أسبوع لتناول العشاء معنا ، وكان ضيوفنا السودانيون من الرجال دون النساء ، إذ كان هؤلاء يعشن حينئذ فى عزلة عن الرجال ، لايختلطن بالأغراب منهم على الرغم من اشتداد المطالبة بتعليم البنات .

وكان يحرس المدينة ليلا قوة من الخفراء . وهذا اجراء اتخذناه فى الأبيض وكسلا وغيرهما من المدن السودانية . وكان أغلب الخفراء من الجنود المتقاعدين ، كل منهم يحمل عصا غليظة وصفارة ويقوم بحراسة جزء من المدينة ليلا . وكان لكل منهم رقم يعلن عنه بأعلى صوته فى كل ساعة بعد غروب الشمس . وكنا

فيدفعها الى النباح ، والحمير الى النهيق .

وزادت سرعة التطور السياسى والدستورى عبر الأعوام ١٩٤٦ - ١٩٤٧ ففى عام ١٩٤٥ أنشأ الأنصار حزب الأمة لمعارضة حزب الأشقاء الذى دعمه اتباع السيد على الميرغنى « الختمية » . وهكذا انبعثت السياسة السودانية من الأصول الطائفية الدينية التى ترجع جذورها الى عام ١٨٨٠ حين قام المهدى بدحر الحكم التركى المصرى، ثم تسلم الحكم بعده الخليفة عبدالله . وكانت طائفة الختمية فى عهده مضطهدة . وكان يتزعم الأنصار عند قيام حزب الأمة السيد عبدالرحمن المهدى، والختمية السيد على الميرغنى . وكانت المنافسة بين السيدين عظيمة ، تنطوى على شىء من العداء بينهما . وكان اتباعهما شديدى التعصب والولاء لهما . وبينما كان حزب الأمة ينادى بالاستقلال المبكر عن طريق التعاون مع بريطانيا وحكومة السودان ، كان « الاشقاء » ينادون بالاتحاد الفورى مع مصر تحت التاج المصرى . وقد لقى مطلبهم هذا تأييداً كبيراً من المصريين . وكان رئيس الأشقاء ، اسماعيل الأزهرى ، يزعم بأنه يتحدث باسم الأمة كلها فلا يجد هذا الزعم الا الرفض من خصومه .

وعند نهاية الحرب العالمية الثانية كان كل من البريطانيين والمصريين حريصاً على بدء المفاوضات بينهما لتعديل معاهدة ١٩٣٦ . وكان ذلك يقتضى منهم النظر فى كثير من المسائل الشائكة ، وكانت مسألة السودان أشدها تعقيداً . وكان السودانيون مصممين على اسماع صوتهم فى أية مباحثات تدور حول مستقبل بلادهم . لهذا أرسلوا للقاهرة فى عام ١٩٤٦ وفداً قومياً يمثل سائر القوى السياسية للتباحث مع المصريين فى الأمر ، ولكنه سرعان ما أنشق على نفسه بسبب الاختلاف بين أعضائه حول السيادة على السودان .

بروتوكول صدقى . . بيفن

وكانت الحكومة البريطانية قد سارعت فى مارس من ذلك العام وأعلنت التزامها بألا تأذن بحدوث أى تغيير فى وضع السودان بسبب تعديل المعاهدة حتى تتم مشورة

السودانيين بالسبل الدستورية . ومع هذا بدأت مفاوضات فى لندن فى ذلك الصيف بين اسماعيل صدقى باشا ، رئيس وزراء مصر ، والمستر ارنست بيفن ، وزير خارجية بريطانيا ، سمح المستر بيفن خلالها لنفسه بأن يستمال لقبول بروتوكول حول السودان يشير إلى وحدة بين السودان ومصر تحت التاج المصرى ، على الرغم من نصه على حق السودانيين فى اختيار الوضع المقبل لبلادهم ، فعل ذلك ضد نصيحة حاكم السودان العام ، سير هيوبرت هدلستون . وفى أكتوبر من عام ١٩٤٦ نشر صدقى باشا نصوص هذا البروتوكول زاعماً فيه قبول بريطانيا لسيادة مصر على السودان، ورفضها لحق السودانيين فى تقرير مصير بلادهم بمنأى عن مصر ، فانزعجت الأحزاب السودانية الداعية للاستقلال واعتبرت الاتفاق خيانة بريطانية . واندلعت المظاهرات فى مناطق كثيرة من القطر بما فى ذلك كردفان . وتزايد العداء لمصر ، فكنا نواجه موقفاً خطيراً يهدد بانفراط عقد الأمن والنظام . وهدد الحاكم العام بالاستقالة من منصبه مالم تؤكد بريطانيا تمسكها بحق السودانيين فى تقرير المصير ، فرضخت وأصدرت التأكيد الذى كان ينشده الحاكم العام ، وانسحبت مصر من المفاوضات على إثر ذلك فى يناير من عام ١٩٤٧ .

وأوضح بروتوكول صدقى – بيفن الذى أمكن اجهاضه ثلاثة أشياء : أولها تشدد مصر فى موضوع السيادة ، وثانيهما المدى الذى كانت الحكومة البريطانية مستعدة للسير فيه فى محاولتها الوصول إلى اتفاقية مع مصر ، وثالثهما تصميم السلطة البريطانية فى السودان على الوقوف بصلابة مع حق السودانيين فى اختيار مصير بلادهم حتى لو كان ذلك ضد بريطانيا نفسها . ولم يستطع المصريون ولا الامريكيون أن يفهموا هذا الموقف من الإنجليز فى السودان أو أن يجدوا له تفسيراً .

وفى خلال هذا كان كثير منا وبعض المثقفين السودانيين يتساءلون عن الحكمة فى أدخال النظام البرلمانى بين قوم تعودوا على أنماط الحكم والإدارة التقليدية ، غرباء على ممارسات وستمنسر ومبادئه ، ولايستطيعون فهمها . ولكن لم يكن لنا فى الأمر خيار اذ أصبح تطبيق هذا النوع من الحكم مطلباً للسياسيين فى السودان وفى غيره من المستعمرات . وكانت الديمقراطية الغربية هى نمط الحكم الوحيد الذى ألفناه نحن البريطانيين . وعليه لم يكن فى استطاعتنا أن نوجه الشعوب الخاضعة لنفوذنا

وجهة أخرى . وكان على هذه الشعوب نفسها أن تدرك - كما فعلت فيما بعد - أن هذا النوع من الحكم غريب عليها وأنه لايناسبها .

وكان حاكم السودان عند نهاية السنوات الثلاث المقررة عمراً للمجلس الاستشارى قد كون مؤتمراً لاعداد مقترحات تحقق مزيداً من التقدم الدستورى . وما ان جاء يوليو ١٩٤٧ حتى كانت مقترحاته لإنشاء جمعية تشريعية منتخبة ، ومجلس تنفيذى يشتمل على وزراء سودانيين جاهزة . ولقيت هذه المقترحات قبولاً من الحكومة البريطانية ، أما الحكومة المصرية فقد طلبت إدخال تعديلات جوهرية عليها ، وأصرت من جديد بأن تكون وحدة وادى النيل تحت التاج المصرى أساساً لأى اتفاق حول السودان . واستمرت المفاوضات بين دولتى الحكم الثنائى طيلة عام ١٩٤٧ ولبضعة أشهر من عام ١٩٤٨ . وأخيراً تم أنشاء الجمعية التشريعية المجلس التنفيذى رغم اعتراضات المصريين .

* * * *

ولما مضى علينا فى الأبيض سنتان ونصف سألنى مدير المديرية المستر كامبل إن كنت أرغب فى العمل بغرب كردفان ، فاستجبت لسؤاله لأنى وجدت فى هذا المركز المقترح تحدياً يسعدنى أن أواجهه . ولأنه كان من المراكز الكبيرة ذات المكانة الرفيعة . تمتاز بتباين طبيعته وسكانه ، فى شماله تسكن القبائل الرحل . وعلى ضفاف بحر العرب فى الجنوب قبائل الدينكا الوثنية . وكانت مساحته تقرب من مساحة اليونان وعدد سكانه نصف مليون نسمة . وكان لمفتشه مساعدان بريطانيان ، ومأموران سودانيان . وضابط شرطة يصرف شؤون الأمن . ولم يكن به غير مساعدى المفتش من البريطانيين أحد ولكن به بعض التجار الأغاريق . وكانت رئاسته فى النهود وهى مدينة ذات مناظر خلابة ، تمتزج فيها الثقافة العربية بالثقافة الافريقية . منازلها من الطين . وشوارعها رملية واسعة تحيط بها الأشجار السامقة ، ولكنها كانت بعيدة ومعزولة . وكنت أتساءل إن كان فى وسعى أن اخذ زوجتى وابنتنا التى رزقنا الله بها فى انجلترا عام ١٩٤٦ (بيتا) ومربيتها الى مكان متخلف كهذا . حقاً ان بالنهود طبيباً سودانياً ؛ لكن مطارها لايصلح للاستعمال إلا فى الحالات الاضطرارية ، والرحلة من الأبيض الى النهود تستغرق ست ساعات بالعربات . وكان على بحكم

حداثة عهدى بالمركز أن أطوف أرجاءه وابتعد بهذا عن أسرتى . وكانت مصادر الماء فى النهود قليلة ، ونوع الماء رديئاً ، ولم يكن بها خدمات كهربائية . وكان بيت المفتش فيها يتكون من صالون كبير ، وغرفة صغيرة للطعام ، ومن غرفة للنوم ، وأخرى للبس ، وكان مسقوفاً بالقش ، وبه غرفة فى أحد أركانه للضيوف .

وفاتحت زوجتى فى الأمر فلم تتردد لحظة واحدة فى قبول الوظيفة الجديدة وبعد احتفالات عيد الميلاد فى عام ١٩٤٧ ، توجهت إلى مقرى الجديد تصحبنى سلفيا وابنتى ومربيتها ، وخيولى ، وببغاء أفريقى ، وقط فارسى أبيض اللون كان هدية لزوجتى من أحد أصدقائنا . وأمضينا العامين التاليين فى التعرف على الظروف الجديدة المحيطة بنا . وكنت كثير التجوال بالسيارة على طرق رديئة . وكانت سلفيا تصحبنى كلما كان ذلك مواتياً .

وفى إحدى الرحلات التى صحبتنى فيها سلفيا توقفنا للافطار مع شيخ قرية « أم بل » التى تقع شمال النهود . وكنت قد تعودت على أكل كثير من الأطعمة العربية والافريقية بدافع من الأدب والمجاملة . ولكن وجبة إفطارى تلك فاقت سائر تجاربي السابقة . كان أول صحن قدم لنا تجربة قاسية ، يشتمل على كبدة خروف نيئة ، وبصل صب عليه عصير الليمون والشطة الحمراء اللون . وكنا نجلس على الأرض ، ليس لنا مفر الا أن نأكل ، وكان مضيفنا يرمقنا بانتباه ، ويدعونا للاكثار من الطعام . وكان صمودنا مصدر إعجاب له . ثم جاء صحن آخر أشد غرابة فالتهمناه أيضاً . وتناولت بعده شيئاً من الحلوى .

وكان يشرف على شؤون المسيرية — وهم رعاة بقر شبه متجولين — مستر بول هاول ويشرف أيضاً على الدينكا نيورك فى النصف الجنوبي من المركز . كان المسيرية يسكنون منطقة غزيرة الأمطار ، كثيفة الأشجار ، غنية بالمرعى ، أما الدينكا فيسكنون حول الأنهار ومستنقعات بحر العرب ، ويعملون بصيد السمك والتماسيح ، وفى الشمال يسكن الحمر وهم شبه رحل ، يربون الإبل ، ويجمعون الصمغ ، لكن منطقتهم كانت قليلة الأمطار ، أشجارها شوكية متفرقة تكثر فيها الكثبان الرملية ، وكانوا يسكنون فى أكواخ من القش ، ويحصلون على الماء من آبار عميقة أو مما

[illegible]
فيصبح شكله شيطانياً منفراً ، أما فى فصل الأمطار فيكتسى بأوراق خضراء فوق هاماته المرتفعة . وكان يشرف على هؤلاء القوم إدارياً المستر أوبرى تنسون ، أما المأموران السودانيان فقد كانا يعملان بين القبائل المختلفة ، وينوبان عن المفتشين عندما تقتضى الضرورة ذلك ، ويصرفان معظم الأعمال الروتينية فى رئاسة المركز . ولم يكن لدى قاضى المديرية فى الأبيض من الوقت مايمكنه من زيارة النهود لتصريف العدالة فيها . لهذا كنا نوزع العمل القضائى بيننا ، كل منا يفصل فى قضية قتل مرة كل شهر على الأقل ، وذلك بسبب مايتسم به المسيرية والحمر من العنف، خاصة فى خصوماتهم حول النساء والأرض . وكانت معظم القضايا تنظر بواسطة المحاكم الأهلية ، ولايترك للمفتش ومساعديه غير القضايا الهامة . وقد اتيح لى خلال فترة عملى بالنهود أن أترأس عدة محاكم كبرى كانت العقوبة فيها الإعدام شنقاً . وكانت أشد هذه القضايا وحشية قضية حب البطيخ التى يمكن تلخيصها فيلما يلى :

قضية حب البطيخ

كان الشاب محمد سليمان قد هجر الدراسة فى يناير ١٩٤٩ وفشل فى الحصول على عمل وكان يتولى تربيته بسبب وفاة والده عمه أحمد حسن ، وهو ضابط شرطة . وذات يوم طلب الشاب من عمه أن يقرضه ثلاثين جنيهاً يذهب بها إلى دار الرزيقات ليشترى حب بطيخ يبيعه ويحقق منه ربحاً فوافق وأعطاه المال . ومر الشاب وهو فى طريقه إلى دار الرزيقات ببلدة المجلد حيث التقى برجل يدعى على اسماعيل كان متوجهاً أيضاً لنفس المكان ولخدمة نفس الغرض . ونسبة لخبرته فى حب البطيخ عرض على الشاب أن يساعده ويوجهه . وانضم الاثنان، فى دار مساليت حيث يقوم سوق كبير لحب البطيخ، إلى عدد آخر من التجار بينهم رجل من دار فور يسمى آدم مهدى . وكان محمد وعلى وآدم هذا يقيمون فى مكان واحد ويقتسمون العيش . واشترى كل منهم مايريد وحان وقت رجوعهم إلى النهود التى تبعد نحواً من مائة وخمسين ميلاً . وكان بالقافلة ثمانية تجار بينهم هؤلاء الزملاء الثلاثة .ولاحظ التجار شدة حرص على وآدم على الشاب محمد .

كانت القافلة تسير على طريق ضيق يكسوه عشب طويل ، الجمال تزحف وراء بعضها . وكان الحر شديداً مما أضطرها للسفر ليلاً بعد غروب الشمس حتى مطلع الفجر حيث تتوقف عن السير ليصيب أفرادها شيئا من الراحة أثناء النهار . وفى الليلة السابقة لوصولهم إلى النهود كان على وآدم يسيران فى مؤخرة القافلة تفصلهم عنها مساحة كبيرة . وعند منتصف الليل سمع المسافرون علياً وآدم ينادون محمداً ليساعدهما فى حمل جوال زعما أنه سقط من على ظهر البعير . وأدرك بهما محمد ثم قفل راجعاً إلى مكانه . ومرة أخرى سمع المسافرون نداء لمحمد من زميليه على وآدم فرجع اليهما ، وكان ذلك آخر عهد المسافرين به . وبعد ساعة من الزمن لحق على وآدم بالقافلة وأخبرا زملاءهما أن محمداً شعر بشىء من الإرهاق والحمى فانفصل عنهما ليصل إلى النهود بطريق جانبى قصير وأنه طلب منهما الاتصال به فى منزل عمه عند وصولهم إلى هناك . ولقيت هذه القصة قبولا لدى الاخرين من أفراد القافلة ، ووصلوا إلى النهود عند الفجر ، وفى العصر زعم على وآدم أنهما قاما بزيارة محمد فى منزل عمه ووجداه لم يزل محموماً وطلب منهما بيع بضاعته .

وباع التجار بضاعتهم وأصابوا شيئاً من الراحة ثم غادروا النهود بعد بقائهم فيها يوماً أو يومين .

ومضت ثلاثة أسابيع دون أن يعلم العم من أمر محمد شيئاً ، فأخذ يساوره القلق عليه ، وبدأ يستفسر عنه ، ولكن دون جدوى . وأخيراً عثر على دليل مادى يثبت له ما وقع على ابن أخيه من هجوم . وكان بوصفه ضابط شرطة قد طلب مساعدة بعض من يتعامل معهم فى التقاط الأخبار . وجاءه من أحدى بنات الهوى نبأ محفظة من الجلد جاءتها هدية قبل أسابيع قليلة من أحد زبائنها . وقالت انها تستطيع التعرف على الرجل بسبب أثر جرح قديم فى كتفه الأيسر . وكان قد زعم أنه اشترى المحفظة من رجل فى دار الرزيقات . ولما عرضت المحفظة على أحمد تعرف عليها فى الحال مؤكداً أنها محفظة ابن أخيه . وبهذا أمكن القبض على طرف الخيط . ولكن البينة لم تكن كافية ، إذ كان الشاهد الوحيد هو تلك المومس التى لاتعرف عن المتهم شيئاً غير أنه ليس من منطقة النهود ، وأن به جرحاً قديماً فى كتفه الأيسر .

وبعد أسبوعين جاءنا من المومس مايفيد بمقدم الرجل الذى أعطاها المحفظة إلى النهود ، وأنه وعد بزيارتها فى تلك الليلة ، وبهذا أمكن القبض عليه . وقد أفادنا عند التحقيق بأن اسمه على أسماعيل ، وأنه من أهل المجلد ، ويعمل مزارعاً وتاجر حبوب . واعترف بأنه سافر فى قافلة مع تجار آخرين كان بينهم شاب يدعى محمد سليمان ، وأن محمداً هذا كان يشكو من الحمى وقد فارقهم قبل وصولهم الى النهود . وذكر أسماء المسافرين فى تلك القافلة . وعند تفتيش جسمه وجدت به عدة جروح ، كما وجدت جروح قديمة بكتفيه . وقال أنه كان قد زار تلك الفتاة ، ولكنه أنكر صلته بالمحفظة . أما زميله آدم مهدى فقد رجع الى دارفور. وطلب منه المحققون من رجال الشرطة أن يدلهم على المكان الذى فارقهم محمد فيه فأبدى حماسة لفعل ذلك ، وقاد معه قوة الشرطة فى عدة طرق ثم زعم أنه لايستطيع التعرف على الطريق الذى سلكوه على وجه الدقه . واستمر حبسه عشرة أيام قام رجال الشرطة خلالها بتمشيط الطريق المؤديه إلى دار الرزيقات حتى وجدوا ضالتهم. إذ عثروا فى أحد الطرق على آثار صراع دار فيها ، وساروا منه على طريق يقود إلى منطقة كثيفة العشب والشجر ، وهناك وجدوا جثة نهشتها النسور والضباع ، ولكن رأسها كان سليماً ، ثم وجدوا عصا غليظة ملطخة بالدماء . ولم يكن هناك أدنى شك فى أن تلك كانت بقايا محمد سليمان .

ولم نجد مشقة فى التعرف على التجار الذين كانوا فى القافلة ، وعند استجوابهم تعرفوا على العصا أداة الجريمة . وكان القتلة قد تفادوا استخدام السكين خوفاً من التلوث بالدم مما يفضح أمرهم أمام رفاق دربهم . ولم تستطع السلطات أن تعثر على آدم ولكنها قدمت على اسماعيل للمحاكمة ؛ فحكم عليه بالإعدام شنقاً . لقد كانت جريمة القتل هذه محكمة التدبير ، وحشية التنفيذ .

ولايكتمل سجلنا عن السودان والسودانيين مالم نتحدث شيئاً عن السجن والمساجين . فقد كان السجن من الناحية الإدارية تابعاً لمفتش المركز . وكان بالنهود وحدها نحو من مائة وخمسين سجينا . وكان السجناء يمتازون بالهدوء والاستسلام . ولم تكن حياتهم قاسية ، ولاطعامهم رديئاً . وكان المفتش يقوم بتفتيش السجن مرة كل أسبوع يصحبه الطبيب وضابط السجن الذى يحمل معه قائمة بأسماء السجناء .

وكان من حق أى سجين ان يشكو للمفتش من أى ضرر أصابه ، أو ظلم وقع عليه . وكانت الشكاوى قليلة ولكن المشاكل كثيرة وهى متعلقة بأسرهم وبيوتهم . وكان السجناء يقضون ثمانى ساعات كل يوم فى عمل متصل خارج السجن يصحبهم حراس مسلحون . وكان من بين أعمالهم قطع الخشب لخيول الشرطة وزرع الأشجار وحمل الماء وغير ذلك . وكانوا وهم يقومون بهذه الأعمال يروحون عن أنفسهم بالأناشيد والاغانى . وأقرر أنه لم تواجهنا أية مشكلة متعلقة بالنظام بين السجناء ، بل كانوا شديدى الانضباط . وإنى لأذكر بعضهم وقد حملوا ذات يوم أحد الحراس الذى كان قد أفرط فى الشراب حتى فقد الوعى ، حملوه على أكتافهم حيث سلموه وبندقيته الى المسئولين . وكنا نستخدم السجناء أيضاً فى تصريف مياه الأمطار التى تهدد المبانى فكانوا يعملون بهمة وحماسة رغم شدة الأمطار والبرد . ويصمدون فى العمل ساعات طويلة .

قصص الأشباح

من الطرائف التى كنا نسمعها قصص الأشباح . وقد كانت متداولة كثيرة الانتشار بين المواطنين فى السودان . وكان لغرب السودان نصيبه منها . من ذلك ما روى من أن أحد مساعدى المفتشين فى دار فور كان مسافراً من الأبيض بعربة المركز يقودها أحد رجال الشرطة ، وكان برفقته خادمه وطباخه . ووصلت السيارة عند غروب الشمس الى قرية الدم جمد ، وهى قرية خاملة الذكر ، فقرر مساعد المفتش أن يمضى الليل فى الاستراحة وهى قطية من الحطب والقش تقع فى طرف القرية . وبعد وقت قصير من وصولهم حضر شيخ القرية ووراءه صبى يحمل صينية بها براد للشاى وجبنة للقهوة مصنوعة من الطين ومحلاة بالسكسك زاهى الألوان . وجلس الشيخ مع ضيفه وشربا الشاى والقهوة معاً . وقام الخادم بايقاد النار جلباً للتدفئة . ثم مضى الشيخ وبقى المفتش الشاب وحده يتأمل النار ولهبها المتوهج ، وفجأة سمع صوتا فاتجه ببصره نحوه وإذا برجل يقف أمامه . وكان كبير السن ، يبدو عليه الإرهاق ، يلبس بدلة عسكرية بالية عليها شرائط ترمز إلى المعارك التى خاضها ، ويلبس أيضاً صندلاً مما يلبسه عادة الجنود . وظنه المفتش خفير الاستراحة . ثم خاطب الرجل المفتش قائلاً أنه أحضر الحطب والماء للطبيخ ، وهو يرجو أن تكون

الاستراحة نظيفة ، فأثنى المفتش على نظافة الإستراحة ودعاه للجلوس . فجلسا يتسامران . وعلم المفتش منه أنه جندى قديم عمل فى الفرقة التاسعة للجيش المصرى فترة عشرين عاماً، وتقاعد عن العمل بمعاش قليل مما اضطره للعمل خفيراً، وأن اسمه محمد خاطر . ثم نهض من مجلسه على أن يحضر لوداع المفتش فى صباح اليوم التالى . وحياه وانصرف . وسمع المفتش خطوات قدميه وهو يبتعد فى الظلام . ولما حضر شيخ القرية مرة ثانية فى الصباح أخبره المفتش نبأ زيارة محمد خاطر . حارس الاستراحة له فى الليلة السابقة، وكيف حدثه عن عمله فى الجيش المصرى . وعقدت الدهشة لسان الشيخ ثم نطق قائلا :—

« لاحول ولاقوة إلا بالله . حقاً لقد كان محمد خاطر الذى عمل بالفرقة التاسعة خفيراً للاستراحة ولكنه توفى قبل عامين » .

* * * *

وكان من بين واجباتنا الكثيرة إعادة التشجير ، مما كنا نقبل عليه بحماسة شديدة إذ كانت الأغنام قد تكاثرت حول المدن ، واتت على الكثير من العشب والشجيرات التى لايزيد ارتفاعها عن ستة أقدام ، ولم ينج منها غير شجيرات العشر . وحتى هذه كانت تأكل أوراقها اليابسة لا الخضراء ، ونتيجة لذلك تعرضت الأرض للتعرية . والتربة للتلف ، بالإضافة إلى بعثرة الرياح وتدفق المياه مما يقضى على عناصر الخصوبة فيها . وكان الحطابون أيضاً من عناصر الخراب للموارد الطبيعية بتكسيرهم للاشجار . وكنا نشعر بالرضا التام ونحن نقيم الزرائب الشوكية لحماية الأشجار ذات النمو السريع التى كنا نزرعها فى أول موسم الأمطار . فتكبر بعد عامين . وأسفر ذلك الجهد منا عن نتائج حسنة .

وكان من واجبنا أيضاً السيطرة على السيول السريعة من الخيران بإقامة متاريس أيضاً من الحجارة والأخشاب والأتربة لاسيما عندما تبلغ سرعة المياه أشدها . وكنا أيضاً نقوم بحفر الحفائر الصغيرة لتخزين الماء لشرب البهائم ، وكانت هذه ذات فائدة عظيمة : تحفظ المـــاء أشهر عديدة بعد نهاية الأمطار . وكانت هذه الأعمال كلها تنفذ بجهود السجناء أو بالعمل التطوعى ، إذ لم يكن فى ميزانية المركز اعتمادات

مالية لمثل هذا النشاط . ولابد لى من أن أثنى على حب السودانيين للعمل الجماعى وعلى تعاونهم ، فقد كانوا يقبلون على العمل الذى نريد انجازه ، متى وفرنا أدواته لهم بهمة عالية .

* * * *

كان خدمنا يقومون بخدمتنا على خير وجه وفى اخلاص وتفان ونشاط . تعرفوا بسرعة على طرق معيشتنا واكلنا وساعات عملنا ، وبرهنوا على انه يمكن الاعتماد عليهم فى الحل والترحال . كانوا يسافرون معنا ساعات طويلة على ظهور عربات ثقيلة مكشوفة ، يتعرضون إلى اشعة الشمس والغبار دون شكوى أو ملل . وكانوا عند وصولنا الى الاستراحات ، يسارعون بجمع الحطب وايقاد النار ، وإعداد الفراش ونصب الناموسيات . وتجهيز الطعام . وكانت عرباتنا تتوقف لهم دائماً عند غروب الشمس لتمكينهم من أداء الصلاة . وكانوا يعملون معنا فى بيوتنا ساعات طويلة ، وكان طباخنا يستطيع أن يعد وجبة فاخرة لستة أو سبعة أشخاص فى وقت قصير جداً ، وكانوا يعملون سبعة أيام دون كلل أو ملل مما جعل حياتنا سهلة ميسورة . وكانوا يمتازون بالأمانة المطلقة . كنت قبل رواجى أعطى خادمى مبلغاً من المال لينفق منه على ادارة البيت وكان كلما طلبت منه نقوداً أعطانى ، ويحتفظ بتفاصيل المنصرفات ويسردها على . وكنت أتبع نفس هذا الاسلوب مع الطباخ .

تباشير عهد جديد

وعلى الرغم من أن التطورات السياسية والدستورية التى كانت تقع فى الخرطوم لم يكن لها أثر يذكر على حياتنا اليومية فى غرب كردفان فقد ساعدت على خلق وعى سياسى بين زعماء القبائل والتجار والمواطنين الذين رأوا فيها تباشير عهد جديد . وقد أجيز خلال عامى الأول فى النهود القانون الذى تنشأ بموجبه جمعية تشريعية كاملة السلطات ، ومجلس تنفيذى رغم احتجاج المصريين ومقاطعة حزب الأشقاء . أما حزب الأمة فقد رحب بهذه الخطوة . وفى نهاية عام ١٩٤٨ أجريت انتخابات عامة لعضوية الجمعية ولكنها مرت بسلام فى النهود رغم حوادث الشغب التى أثارها الأشقاء فى الخرطوم والمدن الأخرى التى كان معظم أهلها من مؤيديهم . وكان من

التطورات الهامة التي شهدتها تلك الفترة خروج الختمية على حزب الأمة والأشقاء، وتكوينهم لحزب «الجبهة الوطنية» ممن لم ينساقوا وراء الآراء المتطرفة للاشقاء أو آراء اسمعيل الأزهرى التي كانت تميل نحو مصر . وكان حزب الجبهة الوطنية هذا يدعو لقيام علاقة مع مصر دون أن تكون لمصر فيها اليد العليا . وكانت آراؤها تحظى بمباركة من السيد على الميرغنى .

وفى هذه الفترة أيضاً جرت مراجعة لنظام الحكم المحلى فى المناطق المدنيـة والريفية، وتقرر ادخال نظام الانتخابات السرى فى المناطق الريفية بدلاً عن التعيين أو الرسائل التقليدية . وكانت تلك خطوة ايجابية فى طريق ممارسة الديمقراطية على النمط الغربى مما كان يرضى طموح المثقفين رغم أنها أزعجت الأكثرية من أنصار الأنظمة التقليدية .

وفى مستهل عام ١٩٤٩ غادرت سلفيا النهود الى الأبيض حيث وضعت ابنتنا الثانية فى مارس من ذلك العام «أماندا» . وكانت بذلك أول طفلة انجليزية تولد فى كردفان . وكان العاملون فى المستشفى يتمنون لى أن أرزق ولداً لعلمهم بأن مولودى الأول كان بنتاً . وقد جرت العادة أن أقدم لهم خروفاً كهدية منى ان كان المولود بنتاً ، وعجلاً ان كان ولداً . وأصيبت ابنتى بعد أسبوعين من ولادتها بالتهابات فى المعدة . وبلغنى النبأ ذات مساء فى النهود . فسافرت بالعربة على عجل الى المستشفى فبلغت الأبيض بعد رحلة مرهقة . وكانت أماندا تتلقى فى المستشفى علاجها، أما أمها فقد كانت طريحة الفراش تعانى من مرض «الكتكوت . .» وكانت حالة الطفلة سيئة للغاية حتى ظن الجميع أنها فى سبيلها إلى الموت . وسمع أحـد القساوسة بذلك فحضر للمستشفى وأقام صلاة على روحها بينما تجمع عدد من الممرضات حول فراشها يذرفن الدمع حزناً عليها . ولكنها ، ولله الحمد ، نجت من الموت بأعجوبة وكتب لها الله الشفاء والحياة . ولما شفيت أمها من مرضها أيضاً أخذت العائلة كلها فى اجازة الى قبرص .

وجاء الصيف فقضيته وحيداً فى غرب كردفان . وهطلت الأمطار مبكرة فى أعقاب مايو وبداية يونيو، واستمر هطولها فى جنوب المركز منتظماً، ولكنـه

كان ضعيفاً فى وسطه وشماله مما كان له انعكاس سيء على الزراعة . وتوالت موجة الجفاف هذه حتى نضبت الآبار ومصادر المياه الأخرى فاضطر السكان للنزوح جنوباً . وقمت بجولة فى أرجاء المركز صحبنى فيها الشيخ منعم منصور، شيخ قبيلة الحمر ، واقتنعنا بعد هذه الجولة بأن منطقة الحمر كانت مهددة بالمجاعة مالم ترسل لها اغاثة عاجلة قبل حلول الشتاء . واتخذنا الاجراءات اللازمة لإرسال هذه الاغاثة من الأبيض إلى النهود . وأمكننا بهذا تفادى الكارثة . ثم واجهتنا مشاكل من نوع آخر . كان يقع فى الطرف الشرقى للمركز عدد من الجبال يسكنها بعض الوثنيين من قبائل النوبة ، وكانت إدارتهم القبلية ضعيفة . وحدث أن أدانت المحكمة بعض شبابهم عندما ثبتت سرقتهم لبعض المواشى فما كان من أهل المنطقة الأ أن ثاروا على حكم المحكمة وقاموا بحرقها . وكان ذلك بداية المشاكل . وأضطررت للسفر إلى تلك المنطقة واستعنت بسرية من قوة دفاع السودان فيها للانتشار وحراستها . وبذلك وحده أمكننى أن أنهى تلك المشاكل واعيد أسباب النظام .

وأصابتنى الدسنتاريا فألزمتنى فراش المرض فترة من الزمن . وجاءنى خلال فترة النقاهة اخطار بنقلى فى نهاية العام الى مصر لأعمل فى وكالة حكومة السودان بالقاهرة نائباً للوكيل هناك ، المستر هزلدن ، الذى التحق بالخدمة السياسية فى السودان عام ١٩٢٦ وتقاعد عام ١٩٥٣ . وكان هذا النبأ مفرحاً لى . اذ أنى رغم اهتمامى بغرب كردفان وإعجابي بتنوع العمل والمشاكل فيه كنت تواقاً للقرب من مسرح المشاكل الناجمة عن تدهور العلاقات البريطانية المصرية السودانية .

لم يكن للسودان سلك دبلوماسى ولا أى نوع من التمثيل مع الدول الأخرى . ولكن الحكومة حرصت على فتح وكالتين ، احداهما بلندن والأخرى بالقاهرة ، لتعملا على تقوية صلات السودان بدولتى الحكم الثنائى لاسيما فى مجال العمل القنصلى والتجارى والثقافى . أما المسائل السياسية فقد كانت تعالج مباشرة بين وزارتى الخارجية فى البلدين وحاكم السودان العام . وكانت تتاح لوكيل حكومة السودان فى القاهرة الفرصة للاطلاع على مايدور بين الحكومة المصرية وحكومة السودان . وكان نقلى للقاهرة يعنى أيضاً أن تجد أسرتى حياة مريحة فيها ، ويعنى أن تتقلص فترات افتراقنا من أربعة أشهر إلى شهرين .

وبعد أشهرقليلة غادرت النهود . وأمضيت إجازة قصيرة مع أسرتى فى قبرص قبل ان أتوجه الى القاهرة لاستلام مهام عملى الجديد فيها . وكان ذلك فى ديسمبر وصحبت انتقالى من السودان الى القاهرة المضايقات التى تفرضها اللوائح والقوانين المصرية . كان الاجراء المتبع حينذاك أن ترش ملابسنا وممتلكاتنا بالمبيدات الحشرية عند نقطة الدخول إلى مصر ، ولكننا تفادينا ذلك بإصدارنا شهادة من أحد أصدقائى الاطباء بأن ممتلكاتنا قد تم رشها . خاصة البطاطين والأفرشة والملايات . أما الببغاء الإفريقى الذى كنا نحمله معنا فقد تقرر حجزه بالحجر الصحى لمدة ثلاثة أشهر . ولم ينقذه من ذلك إلا فصاحته فى ترديده بعض العبارات والأصوات التى تعلمها من السايس . مما أثار ضحك المسئولين المصريين فأخلوا سبيله . وسمحوا له بالدخول بعد حجز دام يوماً واحداً . ووصلت أثاثاتنا فى حالة سيئة يرثى لها . ولكننا استطعنا اصلاحها وبعث الحياة فيها من جديد .

وفى بداية عام ١٩٥٠ كانت مصر تسير بخطى حثيثة نحو نهاية عهد الباشوات . وسقوط الحكم الملكى الفاسد الذى كان يجلس على عرشه الملك فاروق . وكانت سمة ذلك الوقت الذى وصلت فيه إلى القاهرة الفوضى والارتباك .

الفصل السابع

مصر ١٩٤٩ - ١٩٥١

عبرت الأراضى المصرية منذ عام ١٩٣١ عدة مرات، فى كل مرة منها أمضى بضعة أيام فى القاهرة أو بورسعيد . وكنت قد أمضيت اسبوعين فى الصحراء الغربية ، وزرت واحة سيوة فى احدى إجازاتى قبل الحرب العالمية الثانية ، ونفذت أيضاً برنامج جولات واسعة فى صحراء سيناء ، ومع ذلك فقد كانت خبرتى بمصر محدودة . وأتاحت لى الفترة التى أمضيتها فى وكالة حكومة السودان بالقاهرة الفرصة لتعلم الكثير عن هذا البلد الذى لايماثله بلد آخر من حيث الفوارق الكبرى بين الاغنياء والفقراء من أهله .

تعرضت مصر بحكم موقعها الاستراتيجى حيث تلتقى فيها الطرق البحرية والبرية التى تربط قارات أوربا وأفريقيا وآسيا لكثير من الغزو . وكانت مسرحاً لكثير من الحروب، وتعاقب على حكمها كثير من الغزاة الذين اختلطت دماؤهم بدماء المصريين، وثقافتهم بالثقافة المصرية . وجاءهم الإسلام مع الغزو العربى . وأعطتهم هذه الظروف طابعاً خاصاً بهم مليئاً بالتناقضات، وابتعدت بتفكيرهم العاطفى عن الواقع . وجعلتهم يصدقون كل مايسمعون مهما كان بعيداً عن الحقيقة. ومصر تفصلها الصحارى الشاسعة عن جيرانها من جهات الشرق والغرب والجنوب، ويحدها من جهة الشمال البحر ،ورغم ذلك لم يكن المصريون أمة بحرية. ومن الظواهر الغريبة التى تميز أهلها عن غيرهم أن تجدهم فى لحظة من اللحظات يتحلون بالعطف والرقة ودقة الشعور، وتجدهم فى لحظة أخرى قساة غليظى الأكباد ، وهم جميعاً ، رغم ظروفهم القاسية فى القرى والاحياء . يشتركون فى خصلة واحدة هى المقدرة على التهكم على أنفسهم والسخرية منها مما يجعلهم شديدى الشبه بأهل أيرلنده .

كانت المكاتب الحكومية فى مصر متسخة ومزدحمة بالموظفين . تتسم بالفوضى وسوء النظام ، على نقيض بيوت موظفيها وحدائقهم التى تمتاز بالنظافة والتنسيق . وكان يقلل من هيبة المحاكم الجنائية فيها نداءات بائعى الليمونادة والكوكاكولا

الذين يتجولون فى فنائها . وكنت قد واجهت عنتاً شديداً من موظفى الجوازات ذات مرة عندما كنت عائداً من اجازتى، ولكنى لم أكد أصل إلى العمارة التى أسكن فيها حتى تقدم منى شرطى الحراسة بعد أن وضع بندقيته جانباً، وأصر على حمل حقائبى الى الطابق السابع . وكان الشعب المصرى يحتقر مليكه ويضيق بتصرفاته ذرعاً ولكنه يحييه ويصفق له بحماس اذا ما مر موكبه بأحد الشوارع . وعند أشتداد الشعور العدائى نحو بريطانيا أصدرت الحكومة المصرية منشوراً تحرم فيه على الشركات البريطانية الاشتراك فى أى أعمال بمصر، فذهب وكيل احدى شركات المقاولات لمقابلة احد الوزراء فأشار عليه بألا يهتم بذلك المنشور، ثم اعطاه استمارات الاشتراك فى احدى المناقصات، وقد كان مطبوعاً عليها بالحبر الأحمر «لاتقبل عطاءات من الشركات البريطانية» .

لا أستطيع أن أحدد درجة اختلاف المصريين عن غيرهم من العرب، ولكن يمكن القول بأنهم كان لهم دور بارز ملحوظ فى الحفاظ على الثقافة العربية وتطويرها خلال السنوات الالف الاخيرة . ولاأستطيع أيضاً أن أحدد أوجه اختلاف المصريين عن السودانيين رغم اختلاط دمائهم ولكن يمكن القول بأن الاختلاف — مع هذا — كان واضحاً بين هذين الشعبين . فقد أكتسب السودانيون الشماليون منذ الغزو العربي لبلادهم فى القرن التاسع والقرون التالية له، بالإضافة إلى الإسلام واللغة العربية، خصالاً جيدة كثيرة منها الكبرياء واحترام النفس، والصرامة والشجاعة والصبر، وهى خصال ساعدهم على اكتسابها خشونة حياتهم وقسوة بيئتهم. واستمدوا أيضا روح الفكاهة والمرح من أصولهم الافريقية، وتمازج العنصران الافريقى والعربي لينجبا قوماً أقوياء الاجسام والشخصية، يفصل بينهم وجنوب مصر مائتان وخمسون ميلا من الصحراء. ويوحد النيل بين البلدين جغرافياً واقتصادياً الى حد ما. وكثيراً ما يتحدث السياسيون عن وحدة وادى النيل، ولكن هذا لايعدو أن يكون مجرد لغو اذ هم يغفلون مابين الشعبين من اختلافات فى تكوينهما ومزاجهما وموروثاتهما. وقد كان هذا الاختلاف مبعث كثير من الاحتكاك بين مصر وبريطانيا .

كان وكيل حكومة السودان المستر هزلدن عند وصولى للقاهرة فى ديسمبر ١٩٤٩ قد أمضى فى منصبه خمس سنوات، وكان قد عمل قبل ذلك فى شرق

وغرب السودان ، وفى الخرطوم ، وهو يتقن التحدث باللغتين العربية والفرنسية ، ويتمتع بخبرة عميقة بمشاكل مصر وبالعقلية المصرية . وكان بهذا منه خير من يمثل حكومة السودان . وكان من حسن حظى أن تلقيت منه توجيهات وارشادات صائبة حول التعامل مع السياسيين والموظفين والمصريين والدبلوماسيين من الجنسيات الأخرى ، وحول الحياة المصرية الاقتصادية والاجتماعية . وكانت زوجته خير عون لسلفيا . ووجدت مثل هذا النصح والارشاد أيضاً من المستر جون هاملتون الذى كان وكيلاً لحكومة السودان فى القاهرة خلال الاعوام ١٩٣٢ – ١٩٣٥ ثم أصبح ضابط اتصال بين السفير البريطانى والقوات البريطانية المرابطة فى مصر . وكان المستر هاملتون أعزب يعيش فى شقة بالجيزة . وكان قد عمل فى السودان ومصر ولبنان والعراق وله ألمام دقيق بالشؤون العربية ، وصلات وثيقة مع الشخصيات العربية . وكانت شقته ملتقى للكثيرين منهم .

أعمال وكالة السودان

كانت وكالة حكومة السودان فى القاهرة تقوم بالأعمال القنصلية وبكتابة التقارير السياسية . وكان هذا يقتضى منها أن تستقطب أكبر عدد من المصريين وتكسب ثقتهم لاسيما السياسيين منهم وكبار الموظفين ، والمهنيين والتجار . وكانت مسئولة أيضاً عن رعاية مصالح السودانيين فى مصر . وكان على وكيل حكومة السودان أن ينشىء صلات قوية مع السفارة البريطانية فى القاهرة ومع غيرها من السفارات . وكانت الحكومة المصرية وغيرها من الحكومات ، خاصة الحكومة الامريكية ، فريسة لمعلومات خاطئة ومضللة عن السودان . وكنا نحن فى الوكالة نمدهم بالمعلومات الصحيحة كلما طلبوها منا . وقد مكننا ألمامنا باللغتين العربية والفرنسية من نشر الحقائق عن السودان . وكان سيل الزوار للوكالة لاينقطع ، لهذا كنا نعمل صباحاً ومساء لتصريف مسئولياتنا . وكانت الحياة الاجتماعية حافلة ، والصلات واسعة .

واستأجرنا شقة مريحة فى الجيزة ، وجاءنا خادمنا ابراهيم وطباخنا عبدالرحمن من السودان . وكان البرد فى مصر يزعجهم فزودناهما بملابس صوفية . وما كنا لنستطيع إقامة الحفلات الكبيرة الكثيرة التى يتطلبها عملنا لولاجهودهما العظيمة .

وكنا نركب القوارب الشراعية على النيل ترويحاً للنفس ، ونشاهد مباريات البولو أو نركب الخيول ، ونمارس رياضة السير على الأقدام .

وفى عام ١٩٤٩ كان الحزب الحاكم فى مصر هو حزب الوفد برئاسة مصطفى النحاس باشا . والوفد حزب أنشأه سعد باشا زغلول بعد الحرب العالمية الكبرى (١٩١٤ — ١٩١٨) . وكان له هدفان رئيسيان . أولهما تحقيق الاستقلال الفورى لمصر من الحماية البريطانية أو الانتداب . فيما كانوا يسمونه . وثانيهما أن يكون لمصر نصيب كامل فى إدارة السودان مما كانت له انعكاساته السيئة على العلاقات البريطانية المصرية . وكانت مصر تطالب أيضاً بالسيادة على السودان . وتخشى من الوجود البريطانى فيه . وما قد يترتب عليه من سيطرة على مياه النيل . الشريان الحيوى لها . ولما كان الإقتصاد المصرى يعتمد على زراعة القطن ، فقد كان المصريون ينظرون بريبة شديدة وحذر للتوسع فى زراعته بالسودان ، ويفضلون له أن يتجه نحو زراعة المحصولات الغذائية بدلاً عنه وإمدادهم بها . وكانوا يرون فى التقدم الإقتصادى بالسودان ، مايتهدد مصالحهم تهديداً مباشراً .

وكانت هذه الأطماع والمخاوف المصرية سبباً فى نشوء حركة معادية لبريطانيا قويت عبر السنين حتى بلغت أوجها عند مقتل سير لى ستاك : حاكم السودان العام فى القاهرة عام ١٩٢٤ . وكان رد فعل بريطانيا لهذا الحادث فورياً وحاسماً ، إذ قررت إبعاد القوات العسكرية المصرية والموظفين المصريين عن السودان . ونفذ هذا الأمر فى وجه معارضة مسلحة من بعض الوحدات السودانية التابعة للجيش المصرى . ونتيجة لذلك تم انشاء قوة دفاع السودان . وحل الموظفون السودانيون بالتدريج محل المصريين ، وكانت تلك هى اللبنة الأولى فى تشييد صرح استقلال السودان ، ولكن دون قصد أو تدبير مسبق .

وأصيبت سياسة حزب الوفد بنكسة شديدة أعقبتها فترة من التيه لم تدم طويلا . وفى عام ١٩٣٠ عاد الوفد مرة أخرى للحكم بزعامة النحاس باشا هذه المرة . . واستمرت زعامته لهذا الحزب فترة عشرين عاماً حتى أستولى ضباط الجيش على السلطة بزعامة اللواء محمد نجيب وبعده البكباشى جمال عبدالناصر . وكانت أحزاب

المعارضة تتعاقب على الحكم كلما أبعد الوفد عنه رغم أنه كان أقواها جميعاً ، وأن زعيمه النحاس كان بطلاً قومياً .

وبينما كان السودان يتقدم بخطى حثيثة نحو الاستقلال ، كانت مصر فى عام ١٩٤٩ تعانى من مشاكل شائكة . ففى خلال الحرب فى فلسطين عام ١٩٤٨ - ١٩٤٩ أقدم الملك فاروق على طلاق زوجته المصرية المحبوبة الملكة فريدة ، وكثرت مشاكساته لحزب الوفد وللنحاس باشا . وبدت خصاله الذميمة ، كلعب الميسر ، والزنا تنكشف لشعبه مما أفقده الشعبية التى كان قد أكتسبها قبل سنوات قليلة . وكان حزب الوفد قد فقد كثيراً من أنصاره بسبب فشله فى احتواء المشاكل الداخلية والخارجية التى تواجه مصر . ومما أثر عليه أيضاً أكتشاف فضيحة تتصل بتسويق القطن كانت زوجة النحاس باشا ضالعة فيها ، ومنها أيضاً استغلال النفوذ لاسناد المناصب العليا فى الدولة لاقربائها . وهذا كله تناقلته الصحافة المصرية بطريقة مثيرة غير مسئولة مما أثار الخواطر . وكان الفساد قد استشرى بين موظفى الخدمة المدنية ، وبددت بطانة الملك مقدرات وأموال الدولة المخصصة لتسليح الجيش تبديداً .

وعلى إثر الهزائم والفضائح المتلاحقة التى تعرض لها الجيش فى حرب فلسطين ، انصرف رجاله للتعاطف مع حركة الضباط الاحرار ، وهى حركة سرية كان هدفها الإطاحة بالنظام . وفى نفس الوقت رفض قائد الجيش ، محمد حيدر باشا ، أن يسمح للمراجعين بفحص حسابات قوته . وكان ضابطاً تركى الأصل ، عتيق الأسلوب ، ضخم الجسم ، كث الشارب . وبسبب موقفه من المراجعة تقدم أثنان من رجال ديوان المحاسبة باستقالتهما . ولما احتج مجلس الشيوخ على هذا المسلك ، تم حله بمرسوم ملكى . ولم يقف الأمر عند هذا المدى بل ارتفعت تكاليف المعيشة ، فازداد الفقراء فقراً والاغنياء ثراء . وكانت بارقة الأمل الوحيدة فى هذا الظلام الدامس هى المبادىء التى نادى بها الضباط الأحرار .

وكانت الظروف مواتية لاندلاع ثورة فى مصر .

أما فيما يتعلق بالسودان فقد كان مفتاح الموقف فى يد وزارة الخارجية البريطانية والسفير البريطانى فى القاهرة وحاكم عام السودان من جهة ، والحكومة

المصرية من الجهة الأخرى . ولم يكن لوكالة حكومة السودان فى القاهرة أية مسئولية فى هذا الصدد . وكان هاجس السفارة البريطانية أن تتوصل إلى اتفاق مع المصريين وكان الملم موظفيها بشؤون السودان محدوداً ، وولاؤهم له ضيقاً . وكان هذا الموقف يقتضى منا نحن فى الوكالة أن نزودهم بالمعلومات والحقائق التى تنير أمامهم الطريق .

وإذا جاز للسفارة البريطانية فى مصر أن تخطىء فى فهم سياستنا فى السودان . أو فهم المسألة السودانية . فان الأمر يصبح أكثر صعوبة مع غيرهم لاسيما الأمريكيين الذين كانوا متأثرين بالدعاية القديمة عن الاستعمار البريطانى . وكنا لهذا نجد مشقة شديدة فى شرح سياستنا لهم ، ولكن شكوكهم نحو هذه السياسة أخذت تزول بالتدريج حين عينوا ممثلاً لهم فى الخرطوم عام ١٩٥٢ ، وكانت تلك خطوة حميدة منهم .

وفى غمرة تعلق الوفد بانجاز كبير يقدمه للشعب المصرى طالب بالجلاء عن قنال السويس والاعتراف بسيادة مصر على السودان . وترتب على هذا تدهور شديد فى العلاقات بين البلدين . وهدد المصريون بالغاء اتفاقية الحكم الثنائى المعقودة فى عام ١٨٩٩ ومعاهدة ١٩٣٦ ، واندلعت مظاهرات عدائية لبريطانيا فى القاهرة وغيرها من المدن المصرية . وكان ذلك ينذر بوقوع انقلاب عسكرى يدك عرش فاروق .

وخلال هذه الفترة الحرجة فى تاريخ العلاقات الإنجليزية المصرية واصلنا نحن فى وكالة حكومة السودان عملنا بحرية دون أن نتعرض لأى ضغط أو معوقات . وعلى الرغم من أنه لم تكن لنا أية صفة دبلوماسية أو أية علاقات مع الوزارات المصرية فقد ظلت علاقتنا مع الوزراء المصريين دائماً حميمة وودية . ورغم أننا لم نكن طرفاً فى النزاع الإنجليزى المصرى ، فقد كنا رمزاً للحكم الثنائى المرفوض من قبلهم . وكان بأمكانهم أن يحياوا حياتنا جحيماً ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك أو شيئاً منه بل كان موقفهم منا على النقيض ودياً ، وكنا نجد منهم كل عون .

ومضت المفاوضات بين البريطانيين والمصريين خلال عامى الأول فى القاهرة متعثرة . وكررت مصر مطالبها السابقة ولكنها لم تجد من بريطانيا استجابة لهـا .

وكان اسماعيل الأزهرى يظهر فى القاهرة بين حين وآخر ، ثم يقفل راجعاً . وكان من العسير التنبؤ بالتطورات السياسية فى عام ١٩٥٠ ، إذ كان زعيما الطائفتين الدينيتين الكبيرتين وزعماء الأحزاب على جهل تام بما يبيت لبلادهم . وظلوا يرقبون النزاع بين الدولتين فى قلق . وازداد الموقف غموضاً عندما تقدم أحد أعضاء الجمعية التشريعية باقتراح يدعو فيه الحاكم العام بأن يطلب من دولتى الحكم الثنائى التعجيل بتطبيق الحكم الذاتى . وطرح الاقتراح – رغم معارضة مصر – للمناقشة ولكنه لم يفز الا بصوت واحد . وبعد أيام قليلة أجازت الجمعية اقتراحاً آخر يطلب من الحاكم العام تعيين لجنة لتعديل قانونها وقانون المجلس التنفيذى لعام ١٩٤٨ بصورة تتوفر معها لهذين المجلسين درجة أكبر من الاستقلال الذاتى .

لجنة ستانلى بيكر

ووافق الحاكم العام على الاقتراح، وفى مارس من عام ١٩٥١ كون لجنة دستورية برئاسة القاضى ستانلى بيكر وعضوية ثلاثة عشر سودانياً يمثلون حزب الأمة ، والجبهة الوطنية وآخرين للنظر فى الاقتراح . وقد رفض حزب الأشقاء الاشتراك فى تلك اللجنة التى بدأت أعمالها فى ابريل من عام ١٩٥١ ، وفرغت منها فى نوفمبر من نفس العام .

وفى غمار هذه العواصف السياسية قرر الملك فاروق أن يتزوج مرة أخرى، وأوعز لجواهرجى القصر الذى كان يعرف ذوقه بأن يبحث له عن عروس صغيرة السن . وذات يوم زار متجره خطيبان شابان ينشدان خاتم خطوبة ، فوعدهما أن يعده لهما بعد يومين . وبعث يخبر الملك بأنه عثر له على ضالته . وفى اليوم المضروب لاعداد الخاتم حضر الخطيبان . وكان الملك مختبئاً داخل الدكان فى مكان يستطيع منه رؤيتهما . وسقط فى حب تلك الفتاة من أول نظرة . وكان عمرها ستة عشر ربيعا واسمها ناريمان صادق . وكان أبوها موظفاً، وخطيبها دبلوماسياً شابا . واصدر فاروق أمره بفسخ الخطوبة فوراً . وانتشر النبأ فى القاهرة . وكلف عدد من المعلمين بتدريس الفتاة اللغات الإنجليزية والفرنسية والايطالية ، ثم ارسلت للخارج بجواز سفر دبلوماسى لتلم باسس السلوك الرفيع ، ثم أعلنت خطوبة الملك لها رسمياً ، وحدد السادس من مايو ١٩٥١ موعداً للزفاف .

ومهما كان رأى الحاكم العام أو رأى السودانيين فى مغامرات الملك فاروق الغرامية فقد كان لابد من إرسال هدية زواج مناسبة له . وأرسل السكرتير الإدارى يسألنا رأينا فى نوع الهدية المناسبة ، فرأينا أن تأتى ضخمة ومعبرة . وحددنا بأن تكون صينية من النحاس معلقة بسلاسل فضية على اثنين من سن الفيل الضخمة يقومان على قاعدة من الابنوس . وتم إعداد تلك الهدية بالفعل ، وأرسلت الينا فى صندوق كبير . وأخرجناها من الصندوق وألفيناها كما اقترحنا ضخمة تليق بجلال المناسبة ، إذ كان كل من سنى الفيل يزن أكثر من مائة وثلاثين رطلا ، وطول القاعدة ثمانية أقدام ، وعرضها قدمين . وقطر الصينية النحاسية أكثر من ثلاثة أقدام . مثبت بجانبها مطرقة كبيرة . وكانت تحتاج لستة رجال أشداء لحملها . ودعا القصر ممثلى الحكومات لتقديم هدايا بلادهم ، فتزاحمت السيارات الفاخرة يحمل راكبوها اللفائف الأنيقة وبداخلها المجوهرات . والعقود . وصناديق السجائر . والساعات . والآلات الموسيقية ، وغيرها من المصنوعات الفاخرة . ووصلت معهم على ظهر شاحنة ومعى ثمانية من الحمالين السودانيين كبار الأجسام . وحملنا هديتنا الى داخل القصر فتضاءلت كل هدية أخرى أمامها . وانتزع جمالها الإعجاب . ولعل تلك كانت أول مرة يستقبل فيها المصريون شيئاً مصنوعاً فى السودان استقبالا حسناً .

وفى مستهل صيف عام ١٩٥١ قويت احتمالات الانقلاب العسكرى ، وازداد نقد الموظفين المصريين ورجال الأعمال لنظام الحكم والأحزاب السياسية . وقوى حقدهم . وبعد وقت قصير غادرنا القاهرة لتمضية إجازتنا فى بريطانيا وألفيت الموقف فى مصر قد ازداد سوءاً عند عودتى . وتكاثرت أحداث العنف فى منطقة القنال ، وأنشئت كتائب الفدائيين تتبع فى هجماتها طريقة حرب العصابات . وقامت الحكومة المصرية بسحب كل العمال المدنيين فى القواعد البريطانية . وانتشرت المظاهرات العنيفة فى القاهرة والاسكندرية . وشارك فيها الطلاب . ونتج عنها اصابات كثيرة وتخريب عظيم . وكانت قوات الشرطة تجوب الطرقات ، وتقوم بحمايتنا عندما نتجول فى الأسواق .

النحاس يلغى الإتفاقية

وفى السادس من أكتوبر عام ١٩٥١ أعلن رئيس الوزراء النحاس باشا ، أمام البرلمان وعلى مسمع من جماهير غفيرة عن الغاء الحكومة المصرية لاتفاقية الحكم الثنائى لعام ١٨٩٩ ، ومعاهدة ١٩٣٦ ، ونادى بالملك فاروق ، فى فورة ذلك الحماس ، ملكاً على مصر والسودان . وصدر مرسوم بدستور جديد للسودان . وكانت تلك خطوة غير موفقة من مصر لم تستشر فيها من السودانيين أحداً غير اسماعيل الأزهرى ومؤيديه . وكان لهذه الخطوة من الحكومة المصرية نتيجتان ، أولاهما تأكيد الحكومة البريطانية لالتزامها تجاه السودان بألا تأذن بتغيير أوضاعه الا بعد مشورة أهله ، وحرصها على منحهم حق تقرير المصير ، وثانيهما رفض الجمعية التشريعية فى اقتراح اجازته،لمحاولات مصر فرض سيادتها على السودان دون أستشارة أهله ، وشكرها لبريطانيا لاعتراضها على جعل مسألة السودان موضع مساومة بغرض التوصل الى اتفاقيات فى مواضيع أخرى مع الحكومة المصرية . وكان لهذه القرارات من الجمعية التشريعية صدى حسناً فى الأوساط السودانية .

أما فى مصر فقد أزداد الموقف تعقيداً وفوضى . فى قنال السويس قام الفدائيون بمهاجمة المنشآت العسكرية الانجليزية وأسفر ذلك عن قتلى من الجانبين . وانطلقت اشاعة تقول بأن القوات البريطانية تعتزم الزحف على القاهرة ، فقام المصريون بأنشاء المتاريس على الطرق المؤدية اليها من القنال ــ وفى القاهرة نفسها قويت شوكة المظاهرات، وتزايد عدد المشتركين فيها ، وعلا شعار وادى النيل . وخشية من أن تقوم الحكومة المصرية بالاستيلاء على وكالة حكومة السودان ، قمنا بجمع ملفاتنا السرية وأخفيناها . وفى خضم هذه الفوضى أخطرت بنبأ نقلى الى الخرطوم قبل نهاية العام للعمل فى القسم السياسى التابع لمكتب السكرتير الإدارى مما كان مصدر خيبة أمل لى ، إذ كنت سعيداً بعملى فى القاهرة ، حريصاً على تتبع الأحداث السياسية الوشيكة الوقوع فيها . كانت مصر تقف على حافة الفوضى ، وحكومتها تعانى من الانحلال ، والملكية فيها تترنح . والموقف فى القنال متأزم والانقلاب العسكرى متوقعاً بين يوم وآخر . وكان عزائى أن وجودى فى القسم السياسى يتيح لى فرصة متابعة الأحداث بالإضافة الى مافى الخرطوم من أسباب الأمن والأمان لأسرتى . وكان

مقرراً أن يكون عملى ذا صلة مباشرة مع سير جيمز روبرتسن . السكرتير الإدارى وكنت تواقاً للعمل معه . وأخذنا نستعد للرحيل فى آخر نوفمبر ونودع أصدقاءنا .

وخلال الاسبوعين السابقين لقيامنا فى القاهرة وقع حادثان غريبان يكشفان عن الفساد والعبث . وخشية من أن تواجهنا بعض المصاعب فى أخراج أمتعتنا من مصر، إذ لم نكن نتمتع بحصانة دبلوماسية ، اتصلت ببعض أصدقائى فى مختلف الوزارات أستفسر عن الاجراءات التى يجب اتباعها ، فعلمت منهم أنى أحتاج لترخيص لكل شىء أملكه خاصة الكتب التى لاتسمح سلطات الجمارك بخروجها مالم نحصل على اذن لها من رقابة المطبوعات . واتصلت بجهة الاختصاص فأخبرتنى أنه لابد لرئيس الرقابة من أن يقرأ الكتب كلها قبل التصديق بخروجها من مصر . وسألونى عن عددها فأجبتهم بأنها تبلغ نحواً من أربعمائة أو خمسمائة كتاب، فأبتسم الموظف قائلا ان قراءة ذلك كله يستغرق وقتاً طـويلا . وأضطررت أن ألجأ الى أحد أصدقائى من موظفى البنك الأهلى المصرى لأوسطه فى الأمر فوعدنى بأن يقدمنى الى ضابط فى الجيش يعمل أحد أقاربه فى رقابة المطبوعات . وقابلت الضابط ووجدته رجلاً ودوداً ، ووعدنى بالاتصال بالمسئولين . ثم أجرى محادثات تلفونية اقترح على بعدها أن نلتقى فى محـلات قروبي فى المساء . ولدهشتى كانت مقابلتنا مع سيدة سويدية جميلة . وأمرت بالقهوة والكيك . وحدثتنى السيدة بأنها متزوجة من ضابط مصرى يعمل فى الرقابة ، وأنها نفسها تعمل فى قسم الافلام التابع لها ، ولكنها تستطيع أن تنتقل الى قسم الكتب اذا اقتضى الأمر ذلك . ثم اقترحت على أن أضع كتبى فى صناديقها على أن تحضر هى بعد ظهر اليوم التالى لمشاهدتها . وبعد انصرافها منا اقترح على الضابط أن أعد مبلغاً متواضعاً من المال فى مظروف لأقدمه هدية للسيدة عند حضورها لمشاهدة الكتب فى منزلى . وشرحت الأمـر لخادمى ابراهيم وسلمته المظروف . وجاءت السيدة فى الموعد المحدد واستلمت المظروف من ابراهيم ، ودخلت الى حيث كنا وضعنا صناديق الكتب، وختمت كل صندوق منها ثم أصدرت الشهادة المطلوبة !!

وهكذا تخطينا العقبة الأولى .

وجاء بعد هذا موضوع حلى سلفيا ومجوهراتها . وكنت قد أجريت اتصالات

للتأكد من أننا لا تواجهنا صعوبة فى اخراجها . ثم أخذتها إلى مصلحة الجمارك حيث قاموا بوزن كل قطعة منها . واستخرجوا شهادة صالحة لفترة أربع وعشرين ساعة بعد تاريخ السفر فى اليوم العاشر من الشهر . ولكن طائرتنا تأخر اقلاعها يوماً كاملا بسبب هطول أمطار غزيرة فى اليوم المحدد لسفرها.

وذهبنا الى المطار وكان معنا أطفالنا ومربيتهم والببغاء الافريقى الذى نمتلكه والقط والفارس الأبيض . الببغاء، فى قفص والقط فى سلة . وقام موظفو الجمارك بتفتيش حقائبنا وأمتعتنا، وفحصوا تصريح اخراج الببغاء والقط ولكن فى بطء شديد ثم نظروا إلى تصريح المجوهرات وكانت الساعة تشير الى مضى دقائق قليلة على منتصف الليل . وأعلنونى أن التصريح قد انتهت صلاحيته !! وحاولت أن أقنعهم بما فى حديثهم من تعسف لايوجد مايبرره ولكن لم يمكن زحزحتهم عن قرارهم . وأصر الرجل على حفظ المجوهرات فى مظروف كبير . ثم أعطانى ايصالا باستلامها . ووعدنى المستر هزلدون الذى جاء لوداعنا أن يبذل قصارى جهده لتخليصها وارسالها لنا . وقد فعل .

وفى الساعة الواحدة والنصف صعدنا الى الطائرة فأقلعت بنا ، واتجهت جنوبا وهى تشق حجب الظلام الدامس . وبذلك انطوت صفحة حافلة بالأحداث الغريبة .



الفصل الثامن

الحكم الذاتي في السودان

١٩٥١ – ١٩٥٤

عند عودتى للسودان فى منتصف ديسمبر ١٩٥١ بعد عامين قضيتهما فى القاهرة كنت واسع الخبرة بالسياسة والشخصيات المصرية ، ولكنى كنت فى حاجة ماسة لاستعادة صلاتى وصداقاتى مع الشخصيات السودانية البارزة ممن كنت قد تعرفت عليها من قبل ، ولانشاء صلات بالشخصيات التى لم أكن أعرفها . وكان من حسن حظى أن يكون مساعدى فى القسم السياسى بمكتب السكرتير الإدارى من ذوى الخبرة والصلات الحسنة بالناس ، أحدهما المستر جوك دنكان الذى التحق بالخدمة السياسية فى عام ١٩٤٢ ، وترك العمل بالسودان فى عام ١٩٥٦ ليلتحق بالسلك الدبلوماسى ، البريطانى ، وهو مؤلف كتابين عن السودان . أما الثانى ، السيد أحمد مكى عبده الذى كان يسكن فى أم درمان ، قلب السودان النابض بالاحداث السياسية . وكان المستر دنكان يعمل فى أعالى النيل عندما كنت أعمل فى النهود ، وكان قبل ذلك مساعداً لمركز غرب كردفان . وكان قد مضى عليه عام فى القسم السياسى عند تقلدى مهام ادارته ، ولهذا كانت معلوماته عن القادة السياسيين والأحداث السياسية غزيرة ومفيدة . وكنا نعمل مع سير جيمز روبرتسن من خلال مساعده مستر بيتون الذى كنت خلفته فى مركز غرب كردفان عام ١٩٤٧ .

وكان من أول من عنيت بلقائهم من كبار السودانيين ، قاضى قضاة المحاكم الشرعية الشيخ حسن مدثر . وقد كان رغم مكانته الدينية ، وسعة علمه بالشريعة الإسلامية رجلا متحرر الفكر . وقد استقبلنى فى مكتبه استقبالا حاراً . وكانت زيارتى له قبيل عيد الميلاد المجيد بأيام قليلة ، وعند حلول العيد تسلمت منه كرتا بالمعايدة والتهنئة مزيناً بصورة بابانويل .

وكان عبدالله بك خليل زعيم الجمعية التشريعية صديقاً قديماً ، وهو رجل ذو حكمة بالغة وأخلاق رفيعة ، يشع الود من قسمات وجهه . وكان قد تقاعد عن

العمل فى قوة دفاع السودان فى رتبة أميرلاى (عميد) واتجه نحو العمل السياسى استشعاراً منه لمسئوليته العامة . وعند انشاء الجمعية التشريعية قبل أن يكون زعيماً لها . وقد أتيح لى خلال العامين السابقين لقيام الحكم الذاتى أن التقى به كثيراً ، وكنت كلما كثرت لقاءاتى به أزداد اعجابى بأمانته وصدقه وإخلاصه . وقد سعدت بلقائه عقب مغادرتى للسودان فى الخليج ونيجيريا .

واتاح لى عملى فى القسم السياسى أن أكثر من مقابلة زعيمى الطائفتين الدينيتين السيدين على الميرغنى وعبدالرحمن المهدى، وهما شخصيتان تختلفان اختلافاً بيناً ، يعامل كل منهما أخاه فى ريبة وحذر شديد . وكان عدد أتباع كل منهما يبلغ نحواً من مليونى شخص ، شديدى التعصب لهما . وكان السيد عبدالرحمن المهدى عند لقائى به فى السابعة والستين من عمره . وهو ابن المهدى، ولكنه ولد بعد وفاة والده بوقت قصير ، وأمضى السنوات العشرين الأولى من عمره فى النيل الأزرق حيث كون لنفسه ثروة طائلة من زراعة القطن . وقد كان رجلا مهاب الطلعة ، طويل القامة ، ثاقب الفكر، ذكى الفؤاد . وكان السيد على الميرغنى يكبره سناً ، ولكنه كان يتحفظ عند ابداء آرائه ، ويعلن فى كثير من الأحيان أنه رجل دين لاسياسة . وكان قصير القامة مفرط الحساسية من هذه الناحية . لهذا كان يلبس أحذية ذات كعب عال قضى، سنى شبابه فى القاهرة حيث درس الشريعة الإسلامية والقانون . وعلى الرغم من أنه كان ذا شخصية ساحرة جذابة فقد كان يفتقر الى الحيوية التى يتمتع بها المهدى . وكان يعيش فى عزلة بمنزله فى الخرطوم بحرى، نادراً مايقيم احتفالات فيه .

وبينما كانت مناقشاتنا السياسية مع السيد عبدالرحمن لاتنقطع . كان من الصعب علينا طرق أى موضوع سياسى مع الميرغنى الذى كان يفضل التحدث فى مشاكل العالم ، أو التاريخ ، أو المستقبل الإقتصادى للشرق الأوسط . وكان رجلا واسع الثقافة عظيم الإطلاع .

المهدى يكرم ضيوفه

وكان سيادة المهدى يكثر من دعوة الناس لتناول طعام الإفطار معه . وكانت حفلاته هذه تحاط بكثير من مظاهر العظمة . له حارس عند البوابة يستقبل ضيوفه ،

وحارس آخر يقودهم عبر الميدان السندسى الى رجال الحاشية الذين يأخذونهم الى الى أعلى درجات سلم البرندة حيث يكون سيادته فى استقبالهم . ويصافحهم على طريقة الملوك . ثم يقودهم الى داخل المبنى حيث يجلسون فى الصالون وقتاً قصيراً ريثما يعلن الخادم عن إعداد المائدة . وهنا ينهض المدعوون الذين لم يكن عددهم يقل عن أثنى عشر ضيفاً ؛ أغلبهم من أفراد أسرته أو من العاملين معه . وكان يجلس على رأس المائدة ، فيقدم الخدم له ولضيوفه عصير القريب فروت أول الأمر، ثم يتبعون ذلك بالعصيدة أو الكورن فليكس . بعد هذا يغير الخدم الصحون ويقدمون للجالسين فى المائدة السمك البلطى المحمر وعليه شرائح من الليمون الأخضر . والعيش المحمص والزبدة والشاى والقهوة . ثم تغير الصحون مرة أخرى وتقدم بعد ذلك الكبدة والبيض المقلى أو المحمر، واخيراً تقدم المربة .

وبعد المجاملات التقليدية يتجه الحديث الى السياسة ، ويكون ممتعاً وقيماً إذا كان السيد معتدل المزاج . أما إذا كان غاضباً فانه يكثر من الشكوى، ويتحدث عن جحود الحكومة له ومحاباتها لمنافسه سيادة الميرغنى . وكان يتهم الإدارات الحكومية فى الاقاليم بالتحيز للأحزاب كلها دون حزب الأمة .

وكان أسلوب سيادة الميرغنى فى الضيافة مختلفاً عن أسلوب المهدى . لايتعدى الدعوة لتناول القهوة فى الصباح أو حضور حفل شاى فى العصر . وكان السيدان هما القطبان اللذان يدور فى فلكهما القادة السياسيون فى الشمال . ومئات الألوف من رجال القبائل وزعمائها .

وكان عدد الأحزاب السياسية فى مستهل عام ١٩٥٢ أحد عشر حزباً يمكن تصنيفها إلى مجموعتين ، الأولى مجموعة الجبهة الوطنية التى تنادى بوحدة وادى النيل وكان أكبر أحزابها حزب الأشقاء الذى أستطاع فيما بعد أن يستوعب الأحزاب الاتحادية الأخرى . ويطلق على كيانه الجديد المتضخم أسم الحزب الوطنى الاتحادى . وكان يتزعمه اسماعيل الأزهرى .

وكانت تقف فى الجانب الاخر الجبهة الاستقلالية مؤلفة من ستة أحزاب . أربعة منها خفيفة الوزن ولكنها كلها تنادى باستقلال السودان الفورى أو بعد حين . وكان الحزبان الكبيران فى هذه الجبهة هما حزب الأمة والحزب

الجمهورى الاشتراكى الذى تكون فى عام ١٩٥١ متحرراً من السيطرة الطائفية الممثلة فى الأنصار بقيادة السيد عبدالرحمن المهدى، والختمية بقيادة السيد على الميرغنى. وكان أغلب أعضاء الحزب الجمهورى الاشتراكى من المعتدلين الذين كانوا يخشون من مطامع السيد المهدى فى أن يصبح ملكاً على السودان بنفس القدر الذى يخشون فيه من تقلد الملك فاروق لهذا المنصب . وأكتسب هذا الحزب فى عضويته عدداً من الأنصار اتباع المهدى والختمية اتباع الميرغنى . كما استقطب تأييد عدد من زعماء القبائل والعشائر، لهذا اعتبره بعض الناس صنيعة بريطانية ماكرة، نسج خيوطها القسم السياسى بمكتب السكرتير الإدارى بمعاونة الإدارة فى الاقاليم. وأشهد للحقيقة، انه لم يكن لنا يد فى تكوين هذا الحزب.

وكان قد نشر فى الخرطوم قبل وصولى اليها بأسبوعين تقرير لجنة تعديل الدستور التى تحدثنا عنها من قبل، والتى كانت قد شكلت قبل عشرة أشهر لتتقدم بتوصيات محددة حول الخطوات الدستورية التى تقود السودان الى الحكم الذاتى الكامل. وعلى الرغم من أن حزب الأشقاء والمصريين قاطعوها، فقد اشتركت فيها الجبهة الوطنية وبعض الأحزاب الاتحادية المعتدلة الأخرى . ورغم اختلافات أعضائها حول مسألة السيادة استطاعت أن تكمل أعمالها، وان تتقدم بتقريرها الذى أصبح أساسا انبنى عليه قانون الحكم الذاتى فيما بعد .

حريق القاهرة

وكان من الأحداث الهامة التى أعقبت مغادرتى للقاهرة بوقت قصير الحريق الذى شب فيها فى السادس والعشرين من يناير عام ١٩٥٢،إثر أعمال شغب عنيفة خرجت فيها الجماهير الغاضبة فحطمت وخربت . وأسفر هذا منها عن عدة حوادث قتل فيها بعض معارفنا وأصدقائنا . وكانت هذه الأحداث معلماً لنهاية حزب الوفد وبداية النهاية بالنسبة للملكية فى مصر . وترتب عليها عزل النحاس باشا وحكومته . وتعاقبت على حكم مصر بعدهم أربع حكومات مختلفة . وفى هذا الوقت تم انتخاب اللواء محمد نجيب رئيساً للجنة الضباط الأحرار ولنادى الضباط . وكان الملك محقاً فى أعتقاده بأنه ليس لنجيب ولاء نحوه، ولكن ضعفه ـ أى ضعف الملك ـ لم يمكنه

من اتخاذ أى اجراء ضده . ومنذ ذلك الوقت أخذ الضباط الأحرار يظهرون على السطح ويدخلون فى تحد مع القصر . وبعد أشهر قليلة أجبروا الملك على التخلى عن عرشه ومغادرة البلاد مما شغل مصر بأحداثها الداخلية بعض الوقت عن الدخول فى محادثات مفيدة مع بريطانيا .

وفى أبريل من عام ١٩٥٢ ناقشت الجمعية التشريعية فى الخرطوم قانون الحكم الذاتى واجازته بعد إدخال بعض التعديلات عليه فى مداولات استمرت حتى مايو. وأرسل القانون لدولتى الحكم الثنائى للتصديق عليه . وكان يقضى بتشكيل مجلس وزراء سودانى ، وانتخاب برلمان مكون من مجلسين للنواب والشيوخ، يأتى أعضاء مجلس النواب بالانتخاب المباشر وغير المباشر اعتماداً على مدى انتشار الوعى فى دوائرهم . ونص القانون أيضاً على تمثيل المديريات الجنوبية تمثيلا كاملا . وقد استقبل الرأى السودانى العام القانون الجديد استقبالاً حسناً أفقد المتطرفين من الاتحاديين توازنهم لفترة من الزمن . وكان ذلك مصدر سرور لنا ؛ ورأينا فيه تحولا هاماً . ثم اتجهت أنظارنا إلى دولتى الحكم الثنائى وبريطانيا بالذات للإسراع بالتصديق على القانون بعد أن لمسنا التأييد الكبير الذى حظى به فى السودان بتحديده الخطوات العملية التى تقود الى تقرير المصير . وكنا نخشى أن يصاب مؤيدو القانون بشيء من خيبة الأمل إذا ما تأخر التصديق عليه أو توفرت للمصريين الفرصة للتقليل من شأنه . وكنا نتوقع أن تجرى انتخابات الحكم الذاتى ــ اذا ماتم التصديق على القانون ــ فى آخر عام ١٩٥٢ إذ لم يكن عمر الجمعية التشريعية قد مد لفترة أخرى بعد مده من قبل لعام واحد .

وسارت الرياح على غير ماكنا نتمنى ونشتهى ، إذ لم توافق الحكومتان على القانون كما كنا نتوقع . وترتب على ذلك ان سار الحكم دون مجلس نيابي ودون تمثيل للجنوب لفترة عام كامل .

وشكل نجاح الإنقلاب العسكرى فى مصر عام ١٩٥٢ ، وتنازل الملك فاروق عن العرش ، وظهور اللواء محمد نجيب كقائد للثورة عنصراً جديداً وقوياً فى شؤوننا . وكان اللواء نجيب رجلا واقعياً ، أمه سودانية ، وهو على ألمام بالسودان إذ تلقى تعليمه فى الخرطوم وعمل ضابطاً بالجيش المصرى فى جنوب السودان ، وكان يتطلع

إلى نتائج عكسية وان خير السبل لكسب السودانيين هو التعاطف مع رغبتهم فى تقرير مصيرهم بأنفسهم . وساعدته عوامل عدة على إنشاء صلات حميمة مع السياسيين السودانيين، منها لطف شخصيته وواقعيته وأصله السودانى . وانتهز الفرصة المواتية له فوجه الدعوة لزعماء الأحزاب السودانية الشمالية للاجتماع به فى القاهرة فى أكتوبر من عام ١٩٥٢ لإجراء مشاورات معهم . واستجابوا . وأقر فى هذه المحادثات بحق السودانيين فى تقرير المصير ولكنه طلب أولا أن تزال سائر مظاهر النفوذ البريطانى مما يساعده فى التأثير على الأحداث. ويكسب مصر صلة دستورية مع السودان . ولتأكيد هذا الاتفاق أرسل مبعوثين الى السودان استطاعوا بالاغراء أن يكسبوا لمصر كثيراً من التأييد .

أمريكا والسودان

واقتنع الامريكيون بضرورة ارسال مندوب دائم لهم إلى الخرطوم ليتمكنوا من متابعة الاحداث فى السودان . وجاء ضابط اتصال منهم فى أكتوبر عام ١٩٥٢ . ولكنه كان يحمل كثيراً من الأفكار الشاذة لاسيما فيما يتعلق بجنوب السودان . وبمرور الزمن ، وبحكم ما أكتسب من خبرات خلال الرحلات الميدانية التى قام بها فى السودان ، تحرر من هذه الأفكار وتحلى بالواقعية . وفرنسا ايضاً أنشأت لها مكتب اتصال فى الخرطوم ، وكانت بحكم تجربتها كدولة استعمارية أكثر تفتحاً لفهم الأوضاع وتقدير الصعوبات التى تواجهنا . وكان هناك أيضاً مكتب تجارى بريطانى شديد التعاون معنا .

وبدأت المحادثات الانجليزية المصرية فى خريف عام ١٩٥٢ بعد أن كان اللواء نجيب قد فرغ من مشاوراته مع قادة الأحزاب السودانية . وطالب المصريون فى هذه المحادثات بسودنة وظائف الإدارة والشرطة وقوة دفاع السودان ، وعدد من الوظائف الأخرى التى كان يشغلها الإنجليز ، قبل تقرير المصير ، على أن تتم هذه السودنة فى مدة أقصاها ثلاث سنوات . وطالبوا أيضاً بالحد من سلطات الحاكم العام خاصة فيما يتعلق بالمديريات الجنوبية . ورأينا فى هذه المقترحات خطراً داهما

فعارضناها بقوة . وقمنا بمناقشتها مـــع أصدقائنا السودانيين وابدينا اعتراضاتنا لكل من القاهرة ولندن . وكان السودانيون الشماليون قليلى الالمام بمشاعر الجنوبيين فاقترحنا عليهم ارسال وفد من الأحزاب الشمالية الى الجنوب لبحث ماينادى بـــه المصريون مع قادة الجنوب. ولكنهم لم يستجيبوا . وأزداد موقف المصريين تصلباً وعلى الرغم من أن الجبهة الاستقلالية كانت كثيرة الشكوك والريب فى المرامى المصرية ، فقد كانت على استعداد لدفع أى ثمن لانتزاع اعتراف مصر بحق السودان فى الاستقلال . ولهذا قام قادتها فى يناير من عام ١٩٥٣ بالتوقيع على اتفاقية الأحزاب الشمالية التى أيدوا فيها المقترحات المصرية .

وفى أكتوبر ونوفمبر من عام ١٩٥٣ بينما كانت دولتا الحكم الثنائى تتفاوضان قام الصاغ صلاح سالم . أحد قادة الانقلاب العسكرى المصرى، بزيارة للخرطوم لاجراء اتصالات ومشاورات مع الأحزاب السياسية فى الشمال . وكان وسيماً ذا جاذبية وشعبية كبيرة ، يلبس منظاراً أسود طيلة الوقت . وأكسبته زيارته هذه شهرة عظيمة . ونشرت الصحف البريطانية صوراً له وهو يرقص رقصة الحرب مع القبائل فى الجنوب فى ملابسه الداخلية وأطلقت عليه اسم « الصاغ الراقص » .

واتيح لى أن التقى بالصاغ صلاح سالم فى الخرطوم وأن أتحدث اليه فالفيته رجلاً صريحاً وواضحاً . حدثنى أنه لايتعاطف مع نداء استقلال السودان ولكنه يقبل مبدأ تقرير المصير كخطوة نحو تحقيق الوحدة بين السودان ومصر . وهو كغيره من المصريين يعتقد أن بريطانيا لاشأن لها بوضع السودان الدستورى، أو بمستقبل تطوره السياسى بسبب أهمية النيل لحياة مصر . وما يعقده من رباط طبيعى بين البلدين ويرى فى السودان بلداً متخلفاً لايقوى على تصريف شؤونه وحده قبل مضى جيل كامل مؤيداً بهذا منه ماكان قد ورد على لسان سير هيوبرت هدلستون حاكم السودان السابق فى هذا الصدد منذ سنوات قليلة مضت . وهو ــ أى الصاغ صلاح سالم ــ يرى فى مصر بوصفها الأخت الكبرى للسودان ، التى تربطها به اللغة والدين والنيل والمصالح المشتركة ، خير من يساعده ويأخذ بيده . تلك كانت نظرة مصر للسودان فى عهدى الملك فاروق واللواء نجيب التى حاولت أن تقنع بها كلا من بريطانيا وأمريكا

وأحرزت نجاحا ملحوظاً فى التاثير عليهما . وهى لاتلغى حقوق الجنوبيين البالغ عددهم مليونين ونصف المليون .

اتفاقية السودان

وقابلت الصاغ صلاح سالم عدة مرات بعد ذلك وكانت أراؤنا متعارضة ولم أكن أثق فيه على الاطلاق ، أو أظن أنه يصيب نجاحاً بين السودانيين، اذ كان ناعم الملمس شديد الاعتداد بنفسه ، ولكن قد سحب البساط من تحت أقدامنا عندما وافق الاستقلاليون — رغم المخاوف التى أبداها عبدالله بك خليل — على المقترحات المصرية كما سحبه من تحت أقدام الحكومة البريطانية . وبهذا أبرمت الاتفاقية الانجليزية المصرية فى الثانى عشر من فبراير عام ١٩٥٣ . وجاء فى صدرها ما يلى :—

« لما كانت الحكومة المصرية وحكومة المملكة المتحدة لبريطانيا وشمال ايرلندة تؤمنان ايماناً راسخاً بحق الشعب السودانى فى تقرير مصيره وممارسته له ممارسة فعلية فى الوقت المناسب وبالضمانات اللازمة اتفقنا على مايلى . . » .

واشتملت الاتفاقية على خمس عشرة مادة وثلاثة ملاحق تختص باللجنة الاستشارية للحاكم العام . ولجنة الانتخابات . ولجنة السودنة وكانت تشكل نصراً مبيناً للساسة المصرية . ولم يخامر المصريين أدنى شك فى أنهم سائرون نحو القبض على أزمة الأمور بصورة تدفع السودانيين لاختيار نوع من الاتحاد مع مصر، وكانوا على استعداد لبذل كل ما يستطيعون بذله لبلوغ الغاية التى ينشدونها . أما بالنسبة لنا نحن الانجليز العاملين فى السودان فقد كانت الاتفاقية مخيبة لآمالنا ، وصدمة لامانينا حول مستقبل السودان ورفاهيته . وكنا نعتقد أن الأحزاب الاستقلالية قد هزمت نفسها بقبولها الحلول المصرية التى تهدد مستقبل بلادها وتطورها . أما الجنوبيون الذين كانوا يمثلون ثلث أهل البلاد فلم يسع أى حزب من الأحزاب الشمالية لاستطلاع آرائهم رغم تحذير مديرى المديريات الجنوبية الثلاث لقادة أحزاب الشمال من مغبة هذا الأغفال . ولكن هذا التحذير لم يجد منهم غير التجاهل والإهمال ، مما ترتب عليه أن يدفعوا ثمناً غالياً فى أغسطس من عام ١٩٥٥ عندما تمردت الحامية الجنوبية من قوة دفاع السودان ونشبت هناك حرب أهلية استمرت جيلا كاملاً ، وراح ضحيتها آلاف من الارواح .

وننظر الى تطورات الأحداث فى الجنوب فنقول :

كانت المشكلتان الرئيسيتان فى المديريات الجنوبية خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨ –) هما بسط الأمن والنظام والاستقرار ، وبناء ادارة حسنة على أسس سليمة . واستغرق بلوغ هاتين الغايتين وقتاً طويلا ، اذ ظل الجنوبيون لعدة سنوات عظيمى الشك تجاه أى نوع من الارتباط الإدارى بالخرطوم . ولكن أمكن بلوغ الهدف المنشود خلال العشرينات ، وأمكن أيضا كسب ثقة الجنوبيين الذين يخشون نفوذ الشماليين لأسباب تاريخية . وتيسر كسب هذه الثقة بفضل الجهود التى بذلها الإداريون الذين عملوا هناك فترات طويلة تعلموا خلالها اللهجات المحلية ، ودرسوا الظروف الاقليمية ، واستطاعوا أن يتغلبوا على الصعوبات التى كانت تعترض سبيلهم . واشتد ارتباط هؤلاء الإداريين وتبادل الثقة والولاء بينهم وبين أهل المنطقة لدرجة وجدوا فيها مشقة فى التوفيق بين ذلك الولاء وضرورة توفير الحماية لأولئك القوم المتخلفين من جهة ، وفكرة خلق سودان موحد من جهة أخرى. وكان هؤلاء الإداريون ينادون بضرورة توفير الضمانات الكافية التى تحد من هيمنة الشماليين على الجنوب . وساعد من توسيع الشقة بين المنطقتين اختلاف الدين بينهما ، أهل الشمال مسلمون واهل الجنوب وثنيون تعمل بينهم الجمعيات الإرسالية المسيحية لنشر دعواها وتقديم الخدمات الصحية والتعليمية لهم .

وكانت مسألة فصل الجنوب عن الشمال مثار كثير من الجدل فى مرحلة مبكرة سابقة . ولم يكن هناك من حيث التاريخ ولا الثقافة أو الدين أو التقاليد مايبرر الحفاظ على حدود جاءت نتيجة للتسابق الأوربي الأستعمارى نحو أفريقيا . ولو كان السودان مستعمرة بريطانية ولم يكن خاضعاً للحكم الثنائى لأمكن تقسيمه فى السنوات الأولى وفصل جنوبه على الرغم من أن المديريات الجنوبية الثلاث ، بسبب تخلفها وبدائيتها وخلوها من المنافذ المؤدية للعالم الخارجى ، لاتملك مايؤهلها لأن تصبح منطقة مستقلة . وكان لورد اللنبى يستطيع فى عام ١٩٢٤ وهو يقدم انذاره للحكومة المصرية فى أعقاب مقتل حاكم السودان العام سير لى ستاك فى القاهرة أن يضيف اليه مطلباً تكون للجنوب به شخصية منفصلة ، ولكن ذلك لم يكن . وبسبب انتشار الوعى السياسى بين السودانيين فيما بعد لم تعد مسألة فصل الجنوب أمراً عملياً . ولاشك فى أن

من الاداريين الشماليين للعمل فى الجنوب قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية بعدة سنوات. ولكننا لم نفعل ذلك رغم أنه لم يكن لدينا من الأسباب مايدعونا إلى الاعتقاد بعدم مقدرتهم على تصريف هذه المسئولية . أو كسب ثقة الجنوبيين وتعلم لهجاتهم . وبمثل هذا كان يمكننا تقريب الشقة بين شطرى القطر . وكان التعليم وسيلة أخرى لبلوغ هذه الغاية ولكننا لم نحفل بها . . من هنا كانت شكوى الجنوبيين تجاه أهل الشمال . وكان مما يغذى هذه الشكوك ويبقى على ومضتها ذكرى تجارة الرقيق .

وعند نهاية الحرب العالمية الثانية أطلت مشكلة التطور الدستورى لجنوب السودان برأسها مرة أخرى. واتسمت بأهمية خاصة. وذلك عندما بدأ التخطيط لانشاء جمعية تشريعية فى السودان . وكان هناك سؤال هام : أيهما أفضل. أن يمثل الجنوبيون فى الجمعية المقترحة أم أن يكون لهم مجلس خاص بهم متحد فدرالياً مع الشمال . وأخضع هذا السؤال للتداول فى مؤتمر عقد بجوبا عام ١٩٤٧ . حضره عدد من الزعماء الشماليين والجنوبيين . وأوصى المؤتمر بتمثيل الجنوب فى الجمعية التشريعية . وبهذا عومل الجنوب منذ ذلك الوقت على أساس أنه جزء لايتجزأ من السودان . غير أن هذا لا يغير من الحقيقة المتمثلة فى اختلاف الثقافة والدين والعنصر والتقدم . تلك هى خلفية مشكلة الجنوب التى أقتضت أن تعطى فى قانون الحكم الذاتى الذى أجازته الجمعية التشريعية فيما بعد وضعاً خاصاً تحت اشراف الحاكم العام ، مما طالب الاحزاب السودانية بصرف النظر عنه تحت ما مارسته مصر عليها من ضغوط .

وكان الجنوب قد تعرض خلال العامين ١٩٥٣ ــ ١٩٥٤ ازيارات متتالية من الساسة المصريين والشماليين الذين بذلوا لأهله الوعود الخلابة وأربكوا تفكيرهم . وأخلوا بالنظام الإدارى الذى بنى على احترام الأعراف والولاءات القبلية ، وسلطة الحكومة القائمة . وكانت هذه العوامل من الأسباب التى أدت الى التمرد . ويمكن القول فى ايجاز بأن مسئولية تلك المأساة تقع على عاتق حكومة الحكم الثنائى ، وحكومة مصر وعلى السياسيين الشماليين قبل مارس ١٩٥٤ ، وعلى عاتق حكومة السودان بعد ذلك .

بريطانيا تخيب آمالنا

كان موقف الحكومة البريطانيا مخيباً لآمالنا نحن الانجليز العاملين في حكومة السودان . فعلى الرغم من تشددها تجاه الابقاء على أوضاع السودان على ما كانت عليه حتى يمكن استشارة السودانيين فى الأمر عن طريق مؤسساتهم الدستورية ، ورغم تأكيد وزير الخارجية البريطانية لهذه السياسة قبل سنوات قليلة ، فقد خضعت للمشيئة المصرية واستجابت لمقترحاتها . وأمكن بهذا التوصل الى اتفاقية دون أن يستشار السودانيون فيها عبر مؤسساتهم الدستورية . ولم يكن فى وسعنا ألا أن نخضع للأمر الواقع . وتجنبنا اظهار شعورنا الحقيقى لاصدقائنا من السودانيين . واعترف أنى لم أكن أشعر بأى حماس وأنا أصوغ للحاكم العام خطاباً ليلقيه فى الحفل الذى أقيم شمال مكتب السكرتير الادارى بجانب تمثال لورد كتشنر فى صبيحة الرابع عشر من فبراير ١٩٥٣ بمناسبة ابرام الاتفاقية . وقد اشتمل الخطاب على فقرات تشيد باللواء نجيب وترحب بالاتفاقية . وكانت الجماهير فرحة وهى تشهد ذلك الحفل ، عددها يزيد عن خمسين ألفاً من سكان المدن الثلاث ـ الخرطوم والخرطوم بحرى وأم درمان . أما بالنسبة لنا نحن فلم يكن ذلك حدثاً ساراً ولاسعيداً .

وفى تلك الليلة أقام الحاكم العام حفل استقبال فى سراياه وقامت الفرقة الموسيقية التابعة للحامية الانجليزية بالخرطوم فيه بعزف لحن الانسحاب باتقان شديد . وكان الميدان الرئيسى فى السراى غارقاً فى بحر من الأضواء الساطعة ، واشجار النخيل بقاماتها الطويلة سامقة شامخة نحو السماء . وكانت تلك مناسبة مؤثرة حقاً أثارت فى نفوسنا الفخر والاعتزاز بما أنجزنا .

وبعد شهرين من توقيع الاتفاقية تقاعد السكرتير الإدارى ، سير جيمز روبرتسن وكان قد نهض بأعباء جسام فى وجه صعوبات جمة . وصرف مسئوليته فى درجة رفيعة من الكفاءة والمقدرة . وخلفه فى منصبه مستر بيتون . أما أنا فقد عينت نائباً للسكرتير الأدارى ، ونقل المستر بل لوس من منصبه كمدير للنيل الأزرق الى الخرطوم ليصبح مستشاراً للحاكم العام فى الشؤون الدستورية والسياسة الخارجية يعاونه جون كيرنك .

وكان ضغط العمل شديداً علينا فى تلك الأيام ، يمتد ، الى ساعات طوال . لاتتوفر لنا معه فرصة للترفيه . ومع هذا كنا نسترق بعض الوقت للعب البولو فى أم درمان أو الابحار على القوارب الشراعية فى النيل الأزرق . وكانت سلفيا عضواً بارزاً فى جمعية الخرطوم للتمثيل ، مواظبة على الاشتراك فى نشاطها . وكان عملنا قائماً على التعاون مع الكيانات الثلاثة التى خلفتها اتفاقية فبراير كجزء من التطور الدستورى الذى يقود البلاد إلى الحكم الذاتى ، لجنة الانتخابات ، والمجلس الإستشارى للحاكم العام ، ولجنة السودنة . وقد نص قانون تشكيلها على أن يكون رئيس كل منها أجنبياً . وان تكون عضويتها مختلطة من السودانيين والاجانب . وكان أكثر مايشغل هؤلاء الأعضاء الاجانب هو موضـــوع سكنهم ، اذ أعتادوا فى بلادهم على سكن جميل مريح يفوق فى مستواه ما كانت تتيحه ثم امكانياتنا المتواضعة. وكان مما يضايقهم أيضاً شدة الحر وكثرة الحشرات .

كانت لجنة الانتخابات أولى هذه اللجان إقبالا على عملها ، إذ اجتمعت أول مرة فى أبريل ١٩٥٣ تحت قيادة رئيسها المستر سوكومارسن وهو هندى الجنسية . وكانت بالإضافة اليه مؤلفة من عضو أمريكى وعضو بريطانى وآخر مصرى ومن ثلاثة أعضاء سودانيين . وقامت اللجنـــة أول الأمر باستعراض قانون الانتخابات. وادخلت عليه بعض التعديلات . ثم أقبلت على اجراء الانتخابات بصورة جدية ، وكانت قد عهدت باجرائها الى الاعضاء السودانيين وحدهم . وقد استغرق ذلك العمل منهم خمسة أسابيع خلال شهرى نوفمبر وديسمبر . وجاء فى مستوى من الكفاءة انتزع الإعجاب . وكان المصريون قد بثوا دعاية مركزة لكسب المؤيدين للحزب الذى ينادى بالاتحاد مع مصر ، وللتأثير على سير الانتخابات . وكان عملى مرتبطاً بشكل وثيق مع رئيس لجنة الانتخابات .

وجاءت نتيجة الانتخابات لمصلحة الحزب الوطنى الاتحادى ـ إذ أحرز واحداً وخمسين مقعداً من أصل سبعة وتسعين مقعداً فى مجلس النواب ، وواحداً وعشرين مقعداً من ثلاثين فى مجلس الشيوخ ،مما أثار كثيراً من الذعر فى أوساط حزب الأمة . ولاشك فى أنه كان للدعاية المصرية أثر كبير على تلك النتائج، إذ قام المصريون بتوزيع أموال طائلة على الأفراد ورجال الدين والمؤسسات التعليمية وغيرها. فرجحوا

بذلك منهم كفة الانتخابات لصالح الاتحاديين . أما حزب الأمة فقد كانت دعايته نتخابية ضعيفة ، وكانت ذكريات أحداث المهدية حية وقوية . مما أثار مخاوف الناس فى أن تعود لهم المهدية من جديد إذا ماتولى حزب الأمة الحكم .

الأزهرى وزيراً للداخلية

وتم افتتاح غير رسمى للبرلمان فى يناير ١٩٥٤ ، اقتصرت الجلسة فيه على انتخاب رئيس للوزراء ، وزعيم للمعارضة . وكان رئيس الوزراء المنتخب هو السيد اسماعيل الأزهرى الذى ألف حكومته فى التاسع من يناير من سبعة وزراء شماليين وثلاثة جنوبيين واحتفظ لنفسه بوزارة الداخلية . أما زعيم المعارضة فقد كان السيد محمد أحمد محجوب المحامى .

وعلى الرغم من أنى كنت سمعت كثيراً عن السيد اسماعيل الأزهرى كرئيس لمؤتمر الخريجين العام ، ورئيس لحزب الأشقاء المتطرف فى صلاته مع مصر ، ورئيس للحزب الوطنى الاتحادى ، فانه لم تتح لى فرصة لانشاء صلات معه الا عندما صار رئيساً للوزراء ووزيراً للداخلية . وظلت علاقتنا منذ ذلك الوقت متصلة ويومية ، وكانت نظاراته ذات الإطارات المذهبة تخفى وراءها شخصية دافئة القلب ، كريمة المظهر ، طموحة متماسكة ، كان هدفه كما عبر عنه عام ١٩٥١ أن يصير رئيساً للسودان وقد بلغ هذا الهدف فى عام ١٩٦٤ . وخلال الأشهر الثلاثةالأولى التى أعقبت قيام حكومة الأزهرى ، كان المستر بيتون وكيلا دائماً للداخلية ، وكنت نائباً له ، وبهذه الصفة كنت دائم الصلة بالوزير الجديد . وقد حاولت جاهداً أن أتقرب اليه وأصادقه واحرز ثقته مما يمكننى من التأثير على مجرى الأحداث ، ولكن السبيل الى ذلك لم يكن سهلا لاسيما فى الأسابيع الأولى السابقة لأحداث أول مارس المؤسفة .

وكانت الحكومة قد حددت ذلك اليوم ، أول مارس ١٩٥٤ ، موعداً لاجراء مراسم الافتتاح الرسمى للبرلمان ، وقررت أن تدعو لحضور هذه المناسبة عدداً من الضيوف الأجانب ، ولكن الدعوة لأولئك الضيوف ذهبت متأخرة جداً . ورغم نصائحنا لوزير الداخلية بألا يوجه الدعوة للواء نجيب بسبب حساسية الموقف الناشىء عن أنهزام العناصر الاستقلالية فى الانتخابات فقد أصر على دعوته ، وأغفل أيضاً نصيحتنا له بألا يعلن يوم أول مارس عطلة رسمية .

جموعهم الى الخرطوم واحتشدت فيها . وأدى إعلان ذلك اليوم عطلة رسمية إلى تجمعات هائلة من الطائفتين فى شوارع المدينة . وكان محدداً للطائرة المقلة للواء محمد نجيب أن تصل فى الساعة الثامنة صباحاً ، ولكن قبل هذا الموعد بوقت طويل، وقبل بزوغ الشمس، أخذت أعداد كبيرة من المواطنين يبلغ عددها نحواً من عشرين ألفاً ، أغلبها من الأنصار ، تحاصر مطار الخرطوم . وتجمعت أيضاً أعداد كبيرة من الختمية حول القصر وحول مبانى السكرتارية . وعند وصولى الى مكتبى قبل الساعة الثامنة بوقت قصير رأيت الميدان الواقع بين السكرتارية (وزارة المالية الآن) والنيل مكتظاً بأعداد كبيرة من الجماهير الثائرة ، مما جعل وصول الحاكم العام ، واللواء محمد نجيب ، والمستر سلوين لويد وزير الخارجية البريطانية إلى السراى أمراً عسيراً . وقد ظلوا محاصرين هناك تحيط بهم جموع الختمية والأنصار . وأدى هذا الاحتكاك الى تحرش بينهم فقتال عنيف، وكان ذلك بعد الساعة الحادية عشرة . وبقى الأزهرى ووزراؤه فى مكتبه المجاور لمكتبى فى الطابق الأول من المبنى ينظرون الى ذلك القتال دون أن يستطيعوا عمل شىء لوقفه . وسرعان ماسقط فى الميدان عدد كبير من القتلى وابعد عنه الجرحى . ورأينا قمندان شرطة الخرطوم يقود كوكبة من رجاله المسلحين بالعصى والدروع فى محاولة منه لفرض النظام والقانون ، ولكنه ومساعده السودانى واثنا عشر من رجاله سقطوا صرعى وقطعتهم الجماهير الغاضبة اربا اربا . واضطررنا لاستدعاء قوة دفاع السودان لحسم الموقف ، وما أن اطلقت عدة طلقات نارية حتى تفرقت الجموع ، وانتهى القتال .

ولما رأيت انفراط عقد النظام ، وما كان يتهدد مبنى السكرتارية من خطر داهم ، اتصلت بزوجتى تلفونيا وطلبت منها ألا تغادر المنزل ، وأن تستعين بخادمنا ابراهيم فى حراسته . وكان يقع فى منطقة يكثر فيها الأنصار . ولم يخالجنى شك فى أنهم كانوا لايترددون فى اقتحام مبنى وزارة الداخلية اذا ماعلموا بوجود الأزهرى واعضاء حكومته فيها ، إذ لم يكن يحرس المبنى غير أربعة أو خمسة من رجال الشرطة . اما سراى الحاكم العام فقد كانت محاطة بالجماهير منذ الصباح الباكر ، تردد الهتافات

المعادية ، وتلوح بالسيوف والرماح فى وجه الحرس المكون من ستة من الجنود البريطانيين الذين وقفوا أمام البوابة المغلقة يواجهون هذه الجموع الغاضبة دون أن يحركوا ساكناً .

ونجم عن هذه المأساة الدامية تأجيل موعد افتتاح البرلمان واعلان حالة الطوارىء وفى صباح اليوم التالى ، الثانى من مارس ، غادر اللواء نجيب الخرطوم عائداً الى بلاده ، وغادرها أيضاً الضيوف الذين حضروا للاشتراك فى هذه المناسبة .

وأقرر أن الأزهرى لم يحاول أن يلقى بتبعة هذه الأحداث المؤسفة على مستشاريه البريطانيين ، كما أن الحكومة لم تتخذ أى اجراء ضد حزب الأمة أو الأنصار على الرغم مما كان ينادى به البعض من ضرورة اعتقال السيد الصديق المهدى ، الابن الأكبر للسيد عبدالرحمن ، وعبدالله بك خليل أمين عام حزب الأمة ، وغيرهما من قادة ذلك الحزب . وخشية من تدهور الموقف فى غرب السودان والنيل الأزرق حيث يتمركز الأنصار أمرنا بسحب النساء والاطفال الانجليز من هذه المناطق .

وكان لأحداث أول مارس وما يمكن أن ينجم عنها من حرب أهلية أثر واضح على أفكار الأزهرى . إذ أخذ ينظر للأمور بقدر كبير من الواقعية رغم الضغوط الشديدة التى ظل يمارسها عليه المتطرفون من مؤيديه . وقليلاً قليلاً استعاد روح الدعابة التى يتحلى بها . وكنت أقابله بحكم عملى كل يوم ، وأبقى معه ثلاثين دقيقة أقدم له خلالها مالدى من حقائق ومعلومات وأجيب على اسئلته . وأتلقى توجيهاته وابذل كل ما أستطيع من جهد لمساعدته ، وأعامله باحترام يليق به كرئيس للوزراء ، دون أن أخفى عنه رأى فيما أحسبه خاطئاً أو متعارضاً مع القانون . وكان الحاكم العام أيضاً يعامله برقة ولطف . واتت هذه المعاملة أكلها إذ صار أكثر صداقة ووداً لنا ، ولكنه كانت تنقصه صفة التسامح وتقدير الأمور تقديراً صادقاً . وأشير فى هذا الصدد الى خطاب ألقاه فى عيد الاحتفال بالاستقلال ، وصفنا فيه بممارسة الطغيان طيلة سبعة وخمسين عاماً ، وطمس السمات المميزة لشعب السودان ، ونشر الكراهية بين أهله لنضمن لحكمنا طول البقاء . ونسى وهو يكيل لنا التهم الظالمة كيلا أنه تخرج منذ ثلاثة وثلاثين عاماً من كلية غردون التذكارية التى تم انشاؤها وتمويلها من تبرعات جاد بها الشعب البريطانى .

الاتحاديون يراجعون موقفهم

ورغم نجاح الاتحاديين فى الانتخابات . والمصريين فى تضمين آرائهم فى اتفاقية السودان فقد فشلوا فى بلوغ غايتهم وتحقيق أهدافهم ، بل سلكوا فى سبيل ارساء نفوذهم أساليب استفزازية تنذر بخطر داهم ، مما دفع بكثير من الاتحاديين لتغيير أفكارهم السياسية . أما مجلس الحاكم العام فقد فشل أيضاً فى تحقيق ما كان يرمى المصريون له .

وكنت دائم الاتصال بلجنة السودنة التى عهد اليها بسودنة الإدارة والشرطة . وقوة دفاع السودان ، وكل وظيفة حكومية أخرى يمكن أن تؤثر على حرية السودانيين عند تقرير المصير . وأعددت لها بمساعدة مدير شئون الموظفين بوزارة المالية خطة يتم بمقتضاها سحب الموظفين البريطانيين واحلال السودانيين مكانهم بطريقة منتظمة فى المديريات وفى وزارة الداخلية ، تقضى بسودنة الوظائف الدنيا أولا تليها المناصب الكبرى . وكان من المقرر أن يغادرنا فى البداية مائة من الإداريين وفق جدول زمنى محدد ، ثم يدرك بهم من هم أكبر سناً . وبهذا نوفر بعض الوقت لتدريب الإداريين السودانيين الكبار الذين كان من المقرر أن يتسلموا وظائف عليا ما كان مقرراً لهم أن يدركوا بها قبل مضى سبعة أو عشرة أعوام اولا تحديد الفترة اللازمة لاكمال السودنة بثلاث سنوات . وكان مثل هذا التدريب بالغ الأهمية بالنسبة ، للمديريات الجنوبية التى لم يكن للاداريين الشماليين فيها من الخبرة الا النذر القليل ولكن هذه المقترحات منا لم تجد آذاناً صاغية فى لجنة السودنة إذ رأت فى السنوات الثلاث المقترحة منا لتنفيذ برنامجها فترة طويلة . وكان رئيس الوزراء نفسه يعتقد أن السودنة يمكن أنجازها فى عامين. وكانت بعض الصحف الموالية لمصر تتحدث عن فترة أسبوعين أو أقل لاكمال السودنة . واضطررنا فى نهاية المطاف أن نذعن ونقبل تنفيذ السودنة لا فى عامين كما يرى رئيس الوزراء بل فى تسعة أشهر . ولم تكد اللجنة تفرغ من سودنة وظائف الإدارة . والشرطة ، وقوة دفاع السودان . حتى أمتدت يدها الى وظائف أخرى زعمت أنها تؤثر على الجو الحر المحايد اللازم توفره لتقرير المصير . وهنا قرر بعض الموظفين البريطانيين الذين لم تشمل السودنة وظائفهم تقديم استقالاتهم مما كان له آثار سيئة على أداء الخدمة المدنية كلها .

كان من العسير علينا في هذه المرحلة قراءة أفكار رئيس الوزراء بسبب الضغوط المستمرة التي كان يتعرض لها من مؤيديه الموالين لمصر، والمصريين الذين كانوا يعبرون عن مخاوفهم عما يمكن أن تدبره الإدارة البريطانية من مؤامرات في جنوب السودان، أو غرب السودان بين الأنصار، ولكنه أدرك في عام ١٩٥٤ أننا لم نكن نتآمر على حكمه، ولا على السودان بل أدرك أن المصريين الذين أزدادت حماستهم بسبب النجاح الذى أحرزوه في الانتخابات البرلمانية هم مصدر الخطر والاستفزاز والخوف. وكان البكباشي جمال عبدالناصر في ذلك الوقت قد تقلد منصب رئيس الوزراء في القاهرة بجانب اللواء محمد نجيب الذى صار رئيساً للجمهورية. وكان الصاغ صلاح سالم كثير الأسفار للسودان يوجه نشاطه نحو الجنوب بصورة مكثفة. ولم تفت مرامى الصاغ على الأزهرى، فقد كان هدفه أن يستميل الجنوبيين لخدمة المصالح المصرية لا لتحقيق وحدة السودان. ومع ذلك لم يجرؤ أحد على أستنكار هذا المسلك منه، أو التعليق على ما له من أثر على الجو الحر المحايد اللازم لتقرير المصير. وواصلت الأيادى المصرية لعبتها. واذا صح القول بأن هناك رجلا واحداً أسهم بقدر وافر في أضعاف قضية مصر في السودان؛ وسعيها الدؤوب لتحقيق الوحدة وادى النيل، فذلك الرجل هو الصاغ صلاح سالم. الذى أخطأ في فهم العقلية السودانية كما أخطأنا قبله. ولم يقم اعتباراً لتطورها واستيعابها لما كان يجرى في العالم حولها من أحداث. ليس ذلك وحده بل كان اعتقال اللواء محمد نجيب في نوفمبر من عام ١٩٥٤ وتحديد أقامته بمثابة المسمار الأخير في نعش الوحدة. واخيراً أستطاع الرجل الذى كانت مصر تعقد عليه آمالها وأمانيها – اسماعيل الأزهرى – أن يسمو فوق سائر المناورات والضغوط بأن يقف مع مصالح السودان وحده أولا وقبل كل شيء.

وفي نهاية نوفمبر كان أغلب الموظفين البريطانيين العاملين في الخدمة السياسية بالسودان قد غادروا البلاد، كما كان قد غادرها أيضاً ضباط قوة دفاع السودان وضباط الشرطة وآخرون من العاملين في المصالح الحكومية الأخرى. وكنت على وشك تسليم مهام منصبي للسيد محمد محمود الشايقى الذى عرفته منذ خمسة عشر عاماً مضت وكنت أقدره أحسن تقدير، وفي نهاية عام ١٩٥٤ لم يبق في الخرطوم من

موظفى الحكم الثنائى البريطانيين غير الحاكم العام ومستشاره المستر بل لوس ومساعده المستر جوك دنكان ، كما لم يبق من الموظفين الآخرين غير عدد قليل كان من بينهم سير جون كارمايكل الذى أصبح وكيلا دائماً لوزارة المالية فى أول عهد الأستقلال بعد أن كان سكرتيراً مالياً تحت إدارة الحكم الثنائى ، وشغل فيها منصب المستشار المالى والإقتصادى لحكومة السودان حتى كان تقاعده فى عام ١٩٥٩ .

الانجليز والسودان

ماذا بقى بعد ذلك ؟

وفى عام ١٩٣٠ كتبت صحيفة هولندية مقالا اسمته «أجنبى ينظر الى السودان الانجليزى» تقول فى الفقرة الاخيرة منه:

«لا أحد يستطيع أن يتنبأ بمستقبل السودان ، ولكن هناك حقائق محفورة فى ضمير الانسانية لايمكن لها أن تزول ، ولاتستطيع الانتصارات أو الهزائم ، فى الماضى أو الحاضر ، أن تجهز عليها . والحقائق الثابتة التى لايمكن نكرانها هى أن الانجليز وهم يحكمون السودان ، قضوا على تجارة الرقيق فيه ، وزادوا فى الرخاء بين أهله ، ومنحوهم التعليم ، وأضفوا حمايتهم على الضعفاء منهم ، ورفعوا الظلم عن المظلومين ودافعوا عن ضحايا الزعماء والقساوسة ، وعلموهم الشجاعة ، وكافحوا الامراض . وستبقى هذه الأعمال الجليلة نبراساً يهتدى به الإنسان مابقيت آدميته . إذ ليس هناك مايقدمه الإنسان لأخيه الإنسان أعظم من هذا » .

وقد منعت الرقابة فى مصر نشر المقال .

كان كثير من المفكرين السودانيين يعتقدون بأن الخلافات بين طائفتى الأنصار والختمية تزول عند مغادرة البريطانيين لبلادهم ، وان السودان قادر على صيانة استقلاله ، جدير بالمحافظة على حسن الجوار مع جيرانه ، وأن الجنوب لايشكل خطراً فيه . لم يتهمونا بنشر الكراهية واسباب الفرقة بين الناس لنضمن طول احتلالنا للسودان كما فعل الأزهرى ولكن — ربما — كانت هذه الأفكار تراودهم .

ولم نكن عند مغادرتنا للسودان نشعر بالمرارة تجاه السودانيين لأنهم استغنوا نهائياً عن عوننا لهم ، فذلك كان أمراً محتوماً . ولكن الأمر الذى أزعجنا أنهم بدوا

وكأنهم قد بلغوا الاستقلال بفضل جهود مصر التي كنا لا نثق فيها ، وأنهم فعلوا ذلك بالتنازل عن ضمانات دستورية كانت فى نظرنا أساسية للمحافظة على استقرار القطر. ولعلنا كنا مخطئين عندما حاولنا أن نحافظ لأطول وقت ممكن على مستوى الكفاءة والنزاهة التى تميزت بها إدارتنا ، وهذا أمر مفهوم ، حيث كان الاستقلال دائماً يأتى بأسرع مما يحسب ولاة الأمور . لقد كنا نسعى للحصول على مزيد من الوقت لنوفر الضمانات اللازمة ضد تدهور المستوى الذى حددناه . وكنا قد وقعنا فى أخطاء مماثلة ببلاد أخرى أضطرتنا فيها ظروف خارجة عن إرادتنا بأن نسلم السلطة قبل أن يحين أوان تسليمها .

لقد كان معظم من خلفونا فى تقلد المناصب العليا بالسودان يفتقرون الى الخبرة والتجربة التى كان من الميسور لهم الحصول عليها لو كانوا أعدوا لها قبل خروجنا بوقت مبكر . ولكن فترة التسليم كانت قصيرة جداً . ومع ذلك فلايمكن أن نلقى اللوم كله على جهة واحدة . وصدق السياسى السودانى الحكيم الذى قال بعد سنوات مضت على استقلال بلاده إنه لم يكن يدرك فى عام ١٩٥٤ أن عليه وعلى زملائه أن يصبحوا خدماً للشعب لاسادة له ، كما أن الشعب نفسه لم يكن يدرك أن الحكم الذاتى هو نفسه فى حقيقة الأمر انضباط ذاتى .

وفى السنوات التى تلت الاستقلال فى ديسمبر ١٩٥٥ شهد السودان حكومات مدنية وأخرى عسكرية ، وانقلابات وانتفاضات . ووقعت مصادمات مع مصر ، ومع الأنصار ، واستمرت حرب الجنوب سبعة عشر عاماً ، وواجه السودان قدره ، وهو اليوم دولة مستقلة متحدة فى مظهرها ، تربطها صلات وثيقة ودية مع مصر وتتمتع بالاستقرار إذا ماقسنا ذلك بمقاييس الشرق الأوسط وأفريقيا . والسودان أيضا هو حلقة الوصل بين أفريقيا والعالم العربي .

وقد حافظ على كثير مما عملنا من أجله ومما كان وسيظل مصدر فخر واعتزاز لنا .

لقد كان جميلا من السيد أسماعيل الأزهرى أن يتخذ قراراً بأن أكون آخر من يغادر السودان من الإداريين ، وأن يأمر لنا بصالون خاص يقلنا من الخرطوم الى بورتسودان . وكان ذلك فى الرابع عشر من ديسمبر ١٩٥٤ . وفى بورتسودان

عوملنا معاملة حسنة ، إذ أعد لنا حرص شرف من قوات من الشرطة ، وقام المعتمد السودانى بمرافقتنا على قاربه الخاص الى ظهر السفينة . وكنت والسفينة تبحر بنا من الميناء إلى عرض البحر الأحمر أرقب علمى الحكم الثنائى وهما يرفرفان على ساريتيهما فوق مكتب المعتمد، وكان ذلك هو نفس المنظر الذى شاهدته فى عام ١٩٣١ وانا احضر للسودان أول مرة .

وبعد عام واحد اختفيا ورفرف مكانهما علم السودان المستقل ذو الألوان الثلاثة ، الأزرق والأخضر والأصفر . وهكذا الحياة لاتستقر على حال .

سيرة ذاتية

بشـــير محمـد سعـيد

- ولد في أم درمان عام ١٩٢١ حيث نال تعليمه الأولى والأوسط
- عقب تخرجه في كلية غردون التذكارية في آخر عام ١٩٣٩ إلتحق بمدرسة الآداب أحد المدارس التي أنشئت حينذاك نواة لكلية الخرطوم الجامعية وجامعة الخرطوم
- تخرج مدرسا للغة العربية وعمل بالتدريس ثلاثين شهرا.
- التحق بمهنة الصحافة في عام ١٩٤٥
- إشترك في مكتب النشر بمصلحة المعارف عام ١٩٤٧
- درس الصحافة في بريطانيا في الفترة من ١٩٤٥ - ١٩٥٠ م
- أسس صحيفة الأيام المستقلةفي عام ١٩٥٣ وكان أول رئيس تحرير لها.
- أسس شركة الأيام للصحافة المحدودة في عام ١٩٥٤ وكان رئيسا لمجلس إدارتهاومديرها العام وقد أصدرت هذه الشركة فيما بعد صحيفة مورننق نيوز الإنجليزية ومجلة الحياة ومجلة حواء الجديدة
- كان رئيسا لإتحاد الصحافة السودانية ونائبا لرئيس إتحاد الصحفيين العرب وعضوا في مجلس جامعة الخرطوم وعضوا في الوفد السوداني الأول للأمم المتحدة.
- التحق بخدمة الأمانة العامة للأمم المتحدة في مصلحة الأعلام خلال الفترة ١٩٦١ - ١٩٦٣ م
- أتاح له العمل الصحفي زيارة كثير من دول العالم والإشتراك في كثير من المؤتمرات الدولية
- من مؤلفاته تاريخ السودان الحديث - السودان معبر أفريقيا - وله الآن كتاب تحت الطبع يروى سيرة الزعيم إسماعيل الأزهري وعصره
- متزوج وله ثلاثة أبناء وأربع بنات

KUP دار جامعة الخرطوم للنشر